الإسلام والحزبية

لا حزبية في الإسلام ولا إسلام مع التحزب

عائشة محمد

منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الإسلام والحزبية

الطبعة الثانية

1426 من ميلاد الرسول ﷺ

1997 افرنجي

منشورات

طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

الإهداء

إلى الذين آمنوا بشريعة الله منهجاً ودستوراً
وأدركوا أن صوت الشعوب هو صوت الحق
فلا صوت يعلو فوق صوتهم

عائشة محمد
طرابلس ـ ليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

جاء الإسلام بطبيعته رداً على أشكال القبلية الجاهلية بشتى أشكالها، وقلب مفاهيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان عليها العرب قبل البعثة المحمدية المشرفة.

ولما كانت الرسالة السماوية التي كلف بها النبي محمد ﷺ رسالة عالمية وُضعت أسسها وخطوطها العامة من لدن رب العالمين، في القرآن الكريم فإن التناقض الذي حصل والذي ما يزال يحصل بينها وبين ما وضعه بنو البشر تناقض مفروض وواقعي طالما أن كل ما وضعه البشر قابل للخطأ والصواب فهو وضعي وكل وضعي قابل للزوال بينما جاء القرآن الكريم دستوراً حياتياً متكاملاً وضعه الله سبحانه، لم تتدخل فيه قوى بشرية أو غيرها، فهو ليس قابلاً للخطأ والصواب وليس قابلاً للنقد أو التصحيح أو التقويم.

لقد بين الله سبحانه في كتابه العزيز ما كان عليه العرب قبل البعثة. وجاءت وقائع التاريخ لتثبت أن العرب بغير إسلام

هم في الدرك الأسفل من التخلف السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ثم جاء مدونو التاريخ العربي ليؤكدوا صحة ما جاء به القرآن الكريم.

المنطقة العربية تمتلىء بالقبائل والعشائر وتعيش حالة من الرعب الدائم وعدم الاستقرار. بل إنها كانت تترك الفرد في توتر نفسي دائم، في أعماقه ينتظر الأوامر من زعيمه للغزو والقتال والسلب والنهب. وقد قام ذلك المجتمع على المقولة المشهورة «انصر أخاك ظالماً ومظلوماً» وهذا يعني أن كل قبيلة أو عشيرة تحكمها أعراف وتقاليد لا يمكن للفرد أن يتجاوزها.

القبيلة تُحكم من زعيم متنفذ يفرض على أفراد قبيلته ما يريد إن كان ذلك في السلم أو في الحرب ويتحكم في الاقتصاد القائم أساساً على سلب القبائل الأخرى أموالها وماشيتها. ويفرض ما يشاء من حلول اجتماعية لا مرجع فيها سواه. وبذلك جسدت القبيلة العربية الجاهلية شكلاً من أشكال الحزبية البدائية التي تقوم سياسياً على زعامة الفرد المنتمي لعائلة قوية بعدد رجالها وقوية بأموالها وقوية بنفوذها، وليس على الاختيار الشعبي الصادق الذي لا يمارس عليه أي ضغط لا سيما في اختيار القرار العام العائد على الجميع بالفائدة ودون ضرر للآخرين.

صوت القبيلة يعلو على صوت الفرد، هكذا قالوا عن ذلك المجتمع القبلي العربي ولكن الأمر يأخذ أبعاداً أوسع وأعمق.

لأن الفرد يذوب في صوت قبيلته إذا كان فرداً عادياً لكنه إذا كان متنفذاً أو هو في مكان الزعامة فإنه يقرر وعلى الجميع أن ينفذوا.

من هنا جاء الإسلام ليعيد النظر كلياً في الوضع السياسي القائم، ويضع للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أسساً جديدة قوية، وشاملة تبين طريقة الحياة الدنيا وأسلوب معيشتها. وتوضح للناس أن لا خير لإنسان على إنسان إلا بالمعيار الإلهي ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ فلا صوت الفرد يعلو على الناس ولا تتسلط فئة على أخرى. ولا عبودية إلا لله لأن الناس متساوون أمام الشرع وأمام الله سبحانه.

لقد جاء الإسلام ليرفض الصراع القائم بين القبائل التي هي بالمنظور العام أحزاب تتصارع. ولأن هذا الصراع أساساً يحلل حرمة الدم الإنساني وحرمة عرضه وماله رفضه القرآن وهاجمه هجوماً قاسياً، وبين آثاره السلبية المدمرة على الإنسان والمجتمع. ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾.

ولم يجد الإسلام والمسلمون عداء قاسياً أكثر مما لاقوه من تلك القبائل وعلى رأسها قريش. وهذا العداء لم يأت فقط بسبب دحض العقائد الوثنية إنما وبالدرجة الأولى لأنه وجد في هذا الدين الجديد ضرباً للمصلحة السياسية القبلية التي يتنفذ فيها زعماء قبليون كأبي سفيان وعتبة بن المغيرة وغيرهما لقد كان هؤلاء الزعماء يرون في الإسلام قضاء على مصالحهم السياسية

والاقتصادية والاجتماعية المستأثرة بكل شيء، ويرون فيه قضاء على وهمية الأفضلية لديهم وقضاء على سلطتهم التي امتازت بالوراثية مهما كانت الاعتراضات ومهما كانت الآثار مدمرة وسلبية على المجتمع.

ولما جاء الإسلام موضحاً الربط القوي بين الدنيا والآخرة فقد رفض استئثار أي شخص بالحكم أو استئثار فئة دون فئة، فالربط بين الدين والدنيا رسخ لدى المسلم المؤمن عدم التطلع إلى غير رضا الله ورسخ لديه فكرة إعمار الدنيا وعدم ضرر الآخرين. ورسخ في إيمانه أن المسؤولية أمر في غاية الخطورة والأهمية فالحاكم مسؤول أمام الله مسؤولية دقيقة، ومسؤول أمام المجتمع مسؤولية حذرة وخطرة. ولهذا جاء الإسلام مستنداً في مبدأ السلطة على خلفية القرآن الكريم وعلى سنة الرسول محمد ﷺ.

وطالما أن القرآن شريعة المجتمع فإن الإسلام في تجدد دائم، يقوم على أسس إلهية لا يأتيها الباطل لا من خلفها ولا من أمامها ولذلك فهو أيضاً ضد جميع أشكال التصارع على السلطة وضد جميع أشكال الحزبية القديمة القبلية والمعاصرة المتسترة وراء شعارات كثيرة وليست غايتها إلا التنافس لتسلّم الحكم واستئثار فرد أو جماعة بمقدرات الجماهير الواسعة والفقيرة.

إن الحزبية المعاصرة فكرة أوروبية لا تمتّ بأية صلة إلى عالمنا

العربي الإسلامي وإذا كانت قد نشأت في ظروف أوروبية خاصة فإنها لا تنسحب على واقعنا العربي الاسلامي. بل إن القوى الاستعمارية كانت السبّاقة في تشكيل أكثر الأحزاب العربية والإسلامية وربطتها بحسّها الاستعماري وجعلتها عميلة بفكرها للغرب وعميلة بممارستها على أرض الواقع. ولا نعجب عندما ندرك أن اليهود الصهاينة كانت لهم أيدٍ خفية في إدخال الأفكار الحزبية الماركسية والعدمية ومن ثم بعض الأحزاب الوطنية والقومية إلى الواقع العربي الإسلامي. وما زالت المجتمعات الإنسانية ولا سيما المجتمع العربي تعاني الويلات ـ بسبب الصراع الحزبي المنتشر في الواقع وبسبب استئثار الفرد الحزبي بالحكم والتسلط على الشعب ومقدرات الدول والتراجع المستمر نحو التخلف والتقوقع والإقليمية الطائفية البائسة.

لم يكن الإسلام ضد الحزبية دون رؤية، بل استطاع المنهج الاستمراري للحياة في القرآن والإسلام أن يكون سداً منيعاً في وجه كافة الأفكار الحزبية المعاصرة لأنها والأفكار القبلية سواء بسواء بل هي أشد دهاء وأكثر دموية مما كانت عليه حياة الجاهليين قبل الإسلام.

المنهج الإسلامي للحياة يظل يعطي باستمرار فهو دعوة للوحدة بينما الحزبية دعوة للفرقة والإقليمية. هو دعوة للتقدم والحزبية سلوكية متخلفة، وهو دعوة للجهاد والتحرر والحزبية

عاجزة عن الجهاد والتحرر. وهو دعوة لسيادة الحق والحزبية قائمة من أجل سيادة الفرد أو الجماعة الصغيرة على كافة أبناء الشعب ولذلك كله. فإن المنهج الإسلامي هو البديل الموضوعي لكافة أشكال الصراعات الحزبية ولذلك كله كان الإسلام وما يزال ضد الحزبية. لأنه لا لقاء بينهما طالما أن الوضعية وأفكارها تخالف وتناقض جذرياً دستور الله الحياتي الذي وضّحه في القرآن الكريم.

* * * *

الحزبية ظاهرة غربيّة وليست عربية ولا إسلامية

أطلقت كلمة أحزاب على المشركين من قبائل قريش ومن حالفهم يوم وقعة الخندق ضد المسلمين والرسول عليه الصلاة والسلام. ومفرد أحزاب حزب ويقصد به الطائفة أو الجماعة. ويطلق أيضاً على جند الرجل وأصحابه الذين على رأيه. وتحزّب القوم حازبوا صاروا أحزاباً. وهذا ما ورد من المعنى اللغوي في المعاجم العربية.

ورغم المعرفة المسبقة بالمعنى اللغوي لكلمة حزب فإنها في دلالاتها الاصطلاحية السياسية تأخذ أبعاداً أخرى يمكن أن نعيدها إلى أصلها الأوروبي الغربي فالتعريف بها في البداية لا بد حسب المفهوم المعاصر. من أن يبدأ بالأصل التاريخي كمحدد لسماتها الأولية. وهذه السمات تتحدد ضمن ثلاثة اتجاهات:

1 ـ الأحزاب ليست هي الكتل أو الأجنحة بمعنى أنه ما لم يكن الحزب مختلفاً عن الكتلة أو الجناح فهو ليس حزباً. فالأحزاب إنما تطورت عن الكتل والأجنحة التي ارتبطت

بالانتخابات والممارسات البرلمانية ولكنها أصبحت شيئاً مختلفاً عنها.

2 ـ إن الحزب هو جزء من كل والكل هنا يكون تعددياً فكلمة party بحكم اللفظ نفسه ترتبط بمفوم الجزء part ولكن بالرغم من أن الحزب يمثل فقط جزءاً من كل إلا أن هذا الجزء يجب أن يسلك منهجاً غير جزئي إزاء الكل أي يتصرف كجزء ذي ارتباط بالكل.

3 ـ الأحزاب هي قنوات للتعبير بمعنى أن الأحزاب تنتمي أولاً وقبل كل شيء إلى أدوات أو وسائل التمثيل. إنها أداة أو هيئة للتمثيل تقوم بالتعبير عن مطالب اجتماعية محددة.

ولا شك أن هذه التعريفات ضيقة لا تشمل تعريف الحزب الواحد كالحزب الشيوعي الذي يصل إلى السلطة ولا وجود لأي حزب آخر جانبه. وباعتبار أن مصطلح الحزب من الوجهة السياسية الأوروبية فقد وردت له تعريفات عدة منها أن الحزب السياسي هو مجموعة من الأفراد تصوغ القضايا الشاملة وتقدم مرشحين في الانتخابات، وهذا يعني تماماً أن الحزب هو تنظيم نشط. ويعني أيضاً أن كل حزب في جوهره يعني الاشتراك في تنظيم معين والانفصال عن آخرين بواسطة برنامج محدد.

في أوروبا بشكل عام تعددت في المجتمع الواحد الأحزاب وتصارعت من أجل وضع ممثليها المعلنين في مواقع السلطة، ومع

بداية عـام 1917 أي عام الانقلاب الكبير على قيصر روسيا ظهرت شعارات الأحزاب الفردية وفرضت نظام الحزب الواحد على كثير من بلدان أوروبا لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية. غير أن الحزب الشيوعي السوفياتي خصـوصاً اعتمـد على مقـولة ديكتاتورية العمال أو الطبقة العاملة. بينما راحت تظهر الأحزاب الفردية في ألمانيا وإيطاليا معتمدة على ديكتاتورية الفرد وليس على ديكتاتورية العمال أو الجماعة أي جماعة.

والمفهوم الماركسي للحزب يرى أنه يرتبط أولاً بالنظرية الماركسية وهو بذلك تعبير عن مصالح طبقة اجتماعية (العمال) أو بعبارة أخرى وحسب قول (ستالين) قطاع من طبقـة قطاعهـا الطليعي، وهذا يعني أيضاً أن الحزب يعبر عن مجموعة من الناس تربطها مصالح اقتصادية في المحل الأول وتحاول أن تصل إلى السلطـة والحكم عن طريق الثـورة. وهـذا المصـطلح يقسم التشكيلات الحزبية إلى يمينية ويسارية. فالحزب يكون يمينياً حين يقوم على الطبقات المستغلة إقطاعية أو برجوازية ويحاول الوصول إلى الحكم لاستغلال الطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال. وهو يساري حين يقوم على الطبقات الكادحة أو ممثليها ويسعى إلى وضع حد للاستغلال الطبقي على كل حال فإن دراسة ظاهرة الأحزاب في أوروبا أو أمريكا الشمالية تعتمد كلياً على دراسة واقع تلك المجتمعات تاريخياً واجتماعياً وسياسياً وذلك الواقع يختلف جذرياً عن واقع العالم الثالث ويختلف جذرياً عن واقع

الأمة العربية والإسلامية.

ومنذ ما يسمّى الثورة الصناعية الأوروبية أخذ العالم الغربي يتحلل وبشكل سريع من كافة القيم الروحيـة وطغت على حياته الرؤية المادية التي جعلت الفرد كالآلة الصماء. ولعل أهم القيم الروحية التي افتقد لها الغرب الروح الدينية التي عرفها العرب والمسلمون وتقاعسوا عن ممارساتها في الواقع.

لم تكن الكنيسة الكاثوليكية ذلك الملجأ لحل مشاكل الناس وخاصة الفقراء منهم بل إنها وفي فترات كثيرة كانت تتحالف مع قوى الإقطاع والرأسمالية على قمع الشعوب ولذلك جـاءت الماركسية تدعو إلى إنشاء حزب شيوعي يقاتل القيم الموجودة في المجتمع الأوروبي ظناً أنه سيستطيع عن طريق ديكتاتورية العمال أن يقضي على استغلال الإقطاع والبرجوازية الصناعية.

وبينما يحدث ذلك عملياً في روسيا 1917 فإنه منذ ذلك التاريخ وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية تحللت أوروبا نهائياً من القيم والمثل الروحية فلجأ الأفراد ولا سيما السياسيون ولجأت بعض الجماعات إلى تشكيل أحزاب قومية أو وطنية أو أنها رفعت شعارات الديمقراطية والمسيحية الجديدة، وجاءت كرد فعل على الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. وراحت تتنافس في الوصول إلى السلطة وتنفيذ برامج سياسية اجتماعيـة هي في المحصلة لمصلحة فئة على حساب فئة من المجتمع.

ومنذ العشرينات راحت كافة التشكيلات الحزبية الأوروبية الغربية تتنافس على تقديم برامجها القائمة على استعمار بلاد العالم الثالث وخاصة الوطن العربي. وهذا ما جعل الرؤية الإسلامية والقومية الحقيقية تدرك أن استعمار الوطن العربي من قبل أوروبا لم يكن يوماً دون توجيه حزبي متنافس. فالحزب الذي يقدم أفضل الطرق للاحتلال والاستعمار هو الحزب الذي يصل إلى السلطة. وهذا يعني أيضاً. أن تلك الأحزاب قدمت مزيداً من الاستغلال لشعوبها على حساب الشعب العربي. وعندما يفشل الحزب في تحقيق المزيد من الأطماع للأوروبيين كان لا بد من سقوطه ومن ثمّ التمسّح بأذيال الحزب المنافس لتحقيق تلك الأطماع.

وينعكس وضع الأحزاب الأوروبية الاستعمارية على وضع الحركات العنصرية في العالم القائمة على الاحتلال الاستيطاني كجنوب أفريقيا وفلسطين المحتلة.

وإذا نظرنا إلى واقع الأحزاب الصهيونية في فلسطين المحتلة نجد أنها تتنافس في ظل أفكار واحدة هي أفكار الصهيونية التي قامت أساساً على التوجه الاستعماري الاستيطاني في فلسطين والبلاد العربية. فإذا ما اشتد التنافس مثلاً بين حزب العمل الصهيوني ونظيره حزب حيروت فإن البرامج السياسية التنفيذية المقدمة للفرد الصهيوني تقوم على التشدد في الاستيطان وعلى

مزيد من الحقد والدموية والعنصرية. والاتجاه الذي يسود في أوساط التجمع الصهيوني هو الاتجاه العنصري ويعود فضل نجاح أي حزب صهيوني إلى مصداقية عملية في تنفيذ الطمع الصهيوني والاحتلال وطرد العرب وقتلهم.

إن ذلك يعكس تماماً ما آلت إليه طبيعة الأفكار الحزبية الاستعمارية في أوروبا وإذا كانت طبيعة الأحزاب الصهيونية عنصرية فإن الحزب الشيوعي الصهيوني الذي ينتمي فكرياً إلى الماركسية ويدّعي الدفاع عن الفقراء والفلسطينيين والمستغلّين يتمسك مثله مثل أي حزب آخر بالدفاع عن وجود الكيان الصهيوني القائم على احتلال بلاد العرب. وطالما أنه يدخل انتخابات البرلمان الصهيوني وينافس غيره على كسب عدد من الممثلين له فإنه بذلك يحقق التوجه الاستعماري الاستيطاني للصهاينة.

من هنا نقول إن الظاهرة الحزبية غربية المنشأ والروح ولم يكن دخولها في عالمنا العربي والإسلامي عبثاً. لقد أدرك الغرب أن الروح الإسلامية إذا ما فُهمت وطُبقت فإنها ستكون أقوى بما لا يتصورون من حيث التقدم الاجتماعي القائم على التساوي والعدل والتقدم الحضاري. والقائم على رفض أساليب التحزّب جميعها وأساليب التمثيل الذي في جوهره تزييف لصوت الجماهير الواسعة والتي هي صاحبة المصلحة الحقيقية في الحكم وتوجيه أوطانها نحو التحرر والتقدم والكرامة الإنسانية وأيّاً كانت

الأشكال الحزبية الغربية فإنها في المحصلة تخدم فكرة الفردية أو فكرة فئة واحدة من المجتمع لها مصلحة واضحة في استلاب الجماهير فكرها وتطلعها السياسي أو الاجتماعي.

عندما استطاع أدولف هتلر الوصول إلى السلطة في ألمانيا كرس فكرة الحزب الواحد (النازي) المستمدّ جميع أفكاره من الزعيم الفرد. وكان من طبيعة حكم هذا الحزب تكريس التفوق العرقي الألماني. وكان من نتيجة حكم هذا الحزب شنّ حرب عالمية على الشعوب. سقط ضحيتها عشرات الملايين. وتركت آثارها المدمرة على الشعب الألماني نفسه وعلى الشعوب في أكثر أنحاء العالم. وكانت النهاية فشل فكر هذا الحزب وسقوطه واندحاره نهائياً من الوجود.

وفي إيطاليا لم تكن الفاشية وحزبها الفاشي أبعد نظراً أو فكراً من النازية فقد كرس موسليني فكرة الحزب الواحد المستمدّ أفكاره من الزعيم (الدوتشي) وكان مصيره مثل مصير النازية في ألمانيا. فبعد أن كرس الاستعمار لليبيا وغيرها من المناطق، ونفذ فكر الحزب الغربي الاستعماري تهاوى عام 1945 وخسر الشعب الإيطالي كما خسر الشعب الألماني، خسر فكرياً وسياسياً ومادياً واقتصادياً واجتماعياً.

وفي بريطانيا تنافس حزب العمال وحزب المحافظين على زعامة الامبراطورية العجوز وكل ذلك في سبيل تكريس الفكر

الاستعماري في العالم العربي والشرق بشكل عام. وكانت النتائج وخيمة على المجتمع الانجليزي. فَقَدَ كل قيم الروح وانتشرت المخدرات وأمراض الإيدز والسفلس وغيرهما. وكل ذلك نتيجة فكر الأحزاب التي لا يهمها سوى التنافس من أجل السلطة وتثبيت أشكالٍ استعمارية اقتصادية وفكرية في العالم.

أما الأحزاب الشيوعية فقد أعلنت إفلاسها بكافة أحزابها الغربية والشرقية فديكتاتورية طبقة العمال كان شعاراً قد كرس التركيبة الحزبية المخرّبة من داخلها وما إن بدأ غورباتشوف سياسته الجديدة في الثمانينات حتى راح أعضاء الحزب الشيوعي في روسيا ينسحبون منه. وراحت تبرز المشاعر القومية المكبوتة لدى كافة جمهوريات الاتحاد السوفياتي. وفي شرق أوروبا أُلغيت الأحزاب الشيوعية ورُفضت نظريتها وراحت تتخبط في أفكار صدئة ومستحدثة في آن واحد. وعادت الجماهير تعيش حياة الصراعات بشكل مكشوف. صراع من أجل الوصول إلى أبسط أنواع الحياة التي يُفترض أن تكون محققة لكل إنسان.

وفي هذا المناخ استيقظت الحركات والزعامات المحلية الأوروبية وراحت تطرح برامج حزبية عديدة على غرار أحزاب أوروبا الغربية، فانقلبوا من سلطة الحزب الشيوعي الواحد إلى سلطة الأحزاب المتعددة وبذلك كرسوا أوضاعاً اجتماعية اقتصادية جديدة في أشكالها مدمّرة في داخلها. ونتيجة الكبت

السياسي والقهر الاقتصادي الذي مارسته الأحزاب الشيوعية في دول شرق أوروبا تقبّل الناس حرية التعبير من خلال التعددية وجاء هذا القبول كردة فعل انفعالية على الأوضاع السابقة. ولن يمضي وقت طويل حتى يكتشف الناس أنهم لم ينتقلوا إلى الأفضل. وما آلت إليه أوضاع الأحزاب الأوروبية الغربية ستؤول إليه هذه الأحزاب الجديدة التي برزت في شرق أوروبا، ولن تجد في ذلك أي حل جذري لقضايا أممهم وشعوبهم. ستتنافس هذه الأحزاب وتتصارع من أجل السلطة وتكرس المصلحة الخاصة لقياداتها وأعضائها على حساب القضايا الشعبية العامة. وهذه خاصية الأحزاب، إن كان ذلك في نظرياتها أو بنيتها التنظيمية أو ممارساتها على أرض الواقع.

مظاهر الحزبية في صدر الإسلام مخالفة للقرآن والسنة:

جعل الخليفة عمر رضي الله عنه وهو على فراش الموت موضوع الخلافة شورى في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ توفي النبي وهو راضٍ عنهم وكانوا من المهاجرين الأوائل. وقع اختيارهم على عثمان فمضى ينفذ سياسة عمر بن الخطاب في إتمام الفتح في إيران وأفريقية وأقرّ معاوية بن أبي سفيان على دمشق والشام. وفي سنة أربع وثلاثين للهجرة اندلعت ثورة عنيفة على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعي وفي مصر يقودها محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر الصديق. وكان من أهم أسبابها

ضعف الخليفة عثمان إذ كان شيخاً واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال مما أثار ثائرة كبار الصحابة.

وكان علي بن أبي طالب يعد أكبر الشخصيات بين المهاجرين فبايع الذين ثاروا على عثمان وبايعته المدينة ولكن هذه البيعة لم ترضِ طلحة والزبير وانضمت إليهما عائشة أم المؤمنين فأعلنوا سخطهم وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده وتبعهم علي وسرعان ما انتصر عليهم في موقعة الجمل المشهورة وقتل طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة.

وكان علي قد عزل معاوية والي الشام في زمن عثمان فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولي دم عثمان. فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش وسار إليه علي بجموعه ووقعت بينهما حرب (صفين) حيث كاد علي أن ينتصر على جيوش معاوية. ولكن معاوية عمد إلى الحيلة إذ جعل طائفة من الجند ترفع المصاحف على أسنة الرماح، طالبة الاحتكام إلى القرآن، ووقفت الحرب حيث جرت مفاوضات بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري كممثلين لعلي ومعاوية ولما أدرك المسلمون الذين مع علي أن معاوية خدعهم طالبوا علياً بالحرب ثانية ضد معاوية لكن علياً رفض الحرب بسبب ضعف موقفه العسكري. فخرج عليه كثيرون من جنوده واتخذوا من حروراء قرب الكوفة مكاناً لتجمعهم وولوا عليهم (عبد الله بن

وهب الراسبي) وعبثاً حاول علي إقناعهم بأنهم على خطأ. وأخيراً وقعت الحرب بينه وبينهم وخسروا حربهم معهم. ولكنهم لم يمهلوه يوطد خلافته فاغتاله عبد الرحمن بن ملجم. وبذلك فرغ الجو لمعاوية وللأمويين فسيطروا رويداً رويداً على البلاد رغم حروبهم المستمرة مع الخوارج ومع من تشيّع لعلي بن أبي طالب ومع عدة ثورات قامت ضد طبيعة حكمهم الملكي وسياستهم القائمة على الحزبية المتعصبة للعائلة والقوم.

وكان من نتيجة هذه الحروب أن قتل عشرات الألوف من المسلمين، وانقسمت الأمة على نفسها وكأنها عادت من جديد إلى حروب الجاهلية التي ما عرفت سوى الثأر وما عرفت سوى التعصب الأعمى للقبيلة إن كانت على الخير أو كانت على الشر ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن ندرس ظاهرة الحزبية والتحزّب في ذلك العصر مع الأخذ بعين الاعتبار الزمن الشاسع الذي يفصل بين عصرنا وعصرهم. ومع الأخذ بعين الاعتبار أيضاً الفارق في الشكل والبنية التنظيمية بين الأحزاب المعاصرة وبين تلك التي عاشت في فترة حساسة من تاريخ الأمة الإسلامية، فمن الواضح جداً أن الخلاف الذي أدى إلى العنف بين هذه الفئات الأربع - الخوارج والزبيريين والأمويين والشيعة لم يكن خلافاً دينياً بالمعنى الصرف. فالجميع كانوا مسلمين، وظهر أن الخلاف أخذ بعده السياسي القبلي لا سيما حين اشتد الصراع وأدى إلى الاقتتال.

الزبيريون رفضوا تولية علي خليفة على المسلمين وكانت لهم

وجهة نظرهم التي يدافعون عنها. لقد نظروا إلى علي نظرة المشكك في أنه تآمر مع الثائرين الذين قتلوا عثمان فلا يحق له أن يكون خليفة. وكانت حجتهم أن علياً لم يحاكم هؤلاء الثائرين الذين قتلوا خليفة المسلمين وصاحباً من صحابة رسول الله. وتطورت نظرتهم السياسية عندما تحالفت معهم عائشة أم المؤمنين حيث أصبحت تلك النظرة تتسع لتصبح سياسية المنحى وهذا يعني أن من اجتمع على رأيهم طالب بأن تكون الخلافة للزبير أو طلحة باعتبارهما مؤيدَيْن من زوجة رسول الله ﷺ وباعتبارهما من صحابة رسول الله المقربين. وكانت دعوتهم قد أُيِّدت من قبل عشيرتهم وأقاربهم ومن أيّد وجهة نظرهم السياسية.

ومعاوية بن أبي سفيان وجد ضالته بمقتل عثمان. فحتى يتخلص الأمويون من التشدد الذي مارسه عليهم الخليفة الثاني عمر وجدوا أنه من مصلحتهم إسقاط خلافة علي لأنه كان برأيهم أشد وطأة من عمر لا سيما أن الأمويين ظلوا يضمرون في نفوسهم حب السلطة، والصراع من أجلها منذ أن دخل أبو سفيان في الإسلام حين فُتحت مكة، وإسقاط (علي) يعني فتح المجال التجاري والمالي والسياسي لتسلط الأمويين على السلطة. وقد وجد بنو أمية الفرصة سانحة أمامهم لا سيما حين اجتمع لديهم بعض القرشيين. وبعض القبائل العربية الأخرى. وراحوا يعبرون عن وجهة نظرهم السياسية القائلة بأن (علياً) تساهل في معاقبة قاتلي عثمان بل قالوا إنه تآمر معهم للتخلص منه.

أما الخوارج والأساس فيهم أنهم من أصحاب علي، وجدوا في عدم محاربة علي لمعاوية تقصيراً في تطبيق الشريعة ضد الأمويين الذين استغلوا مقتل عثمان ويريدون التسلط على المسلمين فلذلك خرجوا على عليّ وحاربوه وراحت تتطور نظرتهم السياسية حتى أنهم أنفسهم انقسموا فرقاً حزبية شتى ظلت تصارع للقضاء على السلطة الأموية طوال العهد الأموي تقريباً. وعندما سقط علي راحوا يصارعون عدوّهم الأساسي (الأمويين) ولم يتوانوا يوماً عن السير في طريق إسقاط الأمويين فأشعلوا حروباً دامية امتدت إلى كثير من مناطق العرب والمسلمين، وما أن يُقضى على ثورة خارجية حتى تقوم أخرى.

بينما راح المتشيعون لعلي يدافعون عن وجهة نظرهم السياسية، وبعد مقتل علي ظل الصراع قائماً بينهم وبين الأمويين وقتل بسبب ذلك أولاد علي وبعض أحفاده. وقد تشيّع لهم كثيرون من الموالي الذين وجدوا أن الأمويين عنصريون يضطهدون عامة الشعب، وهم استولوا على السلطة بحد السيف والأحق بهذه السلطة واحد من أحفاد علي باعتباره من آل البيت.

وإذا جاز التحقيق في طبيعة هذه الأحزاب على ضوء المفاهيم العصرية لوجدنا أن الأمويين الذين شكلوا الكتلة الأقوى بعد إسقاط علي بن أبي طالب قامت فكرياً واقتصادياً

واجتماعياً على إقامة سلطة حزب التجار المكيين. ولم يكن النجاح الذي أحرزه معاوية يعود إلى براعته في السياسة بل يرجع أساساً لطبيعة الظروف المستجدة والتي طرأت على المجتمع الإسلامي نتيجة التأثر والتأثير بالشعوب المجاورة بيد أن بعض المسلمين يرون أن الأمويين ضربوا قضية التكافل الاجتماعي في الصميم وذلك من خلال قولهم بأن الملكية حق فردي مطلق.

وعلى ذلك فالنظرية الحزبية الأموية أخذت في مسارها أكثر من طابع، فيما ربطت بين الطابع السياسي والطابع الاجتماعي والطابع الاقتصادي، وقد وجد المؤرخون في ذلك تغييراً في جوانب كثيرة من جوهر الدين الإسلامي. بينما وجد آخرون أن تغيّر الظروف الاجتماعية في زمن معاوية أدى إلى رفض المنهج الذي سار عليه علي وهو المنهج القائم على رؤية قرآنية ومحمديّة محددة، وقد وجدوا في ذلك خطراً على مصالحهم التي توسعت بسبب الفتوحات وبسبب الثراء. ولذا فقد وجدوا من الأنسب التعايش مع سياسة الحزب الأموي كونه يمثل التماثل والتشابه للظروف الجديدة الطارئة. وكونه يساير العصر الذي رأوا فيه غير عصر النبي ﷺ وعصر أبي بكر وعمر.

ونستدل من خلال مسار الصراع الأموي مع بقية الأحزاب أن كتلة حزب الأمويين قويت كثيراً بحيث استطاعت الصمود في السلطة والحفاظ عليها حوالي قرنٍ من الزمان، وقد أدت عوامل

كثيرة لصمودها، منها قوة المال التي بأيديهم وأيدي أنصارهم. ومنها قوة العصبية القبلية التي تأججت من جديد بين القيسيين واليمنيين ومنها أيضاً استنصار زعامات إسلامية كان لها تأثير كبير على القبائل والناس، بشكل عام.

لقد دافع الأمويون عن فكرة محددة، ونظموا صفوفهم وصفوف أنصارهم بحيث قاتلوا في سبيل الحفاظ على السلطة قتالاً شرساً، وربطوا بين الواقع السياسي والواقع الاجتماعي الجديد ربطاً استطاعوا من خلاله الصمود أمام منافسيهم من الخوارج والشيعة وغيرهم.

إذا بهذا المقياس نستطيع القول أن الأمويين بالمنظور العام كانوا حزباً ذا صبغة طبقية قبلية، له فكرته، وله رجاله وواقعه وله صراعه مع الآخرين للحفاظ على المكتسبات الخاصة.

بينما كان الأمويون كذلك فإن المؤيدين لوجهة نظر علي بن أبي طالب انقسموا سياسياً واجتماعياً. فمن رؤساء القبائل كان عدد لا يستهان بقوته ناصروا علياً على أساس قبلي تعصبي وعلى أساس التشيع لأهل العراق على الشام ومن ناحية أخرى وُجد آخرون في صف علي على أساس من الطمع بالسيادة والسلطة إذا تم النصر على الامويين وإلى جانب هاتين الفئتين وجدت مجموعة من المؤمنين باخلاص علي ومكانته في الإسلام قبل أن يدركوا تماماً حقيقة المعركة، وأخيراً وُجدت مجموعة مؤيدة لسياسة علي

الاجتماعية سواء كانت بسبب بعد ديني أو بسبب بعد اجتماعي.

فالمناصرون لعلي لم يكونوا كتلة واحدة ذات فكرة واحدة وأهداف وغايات واحدة وهذا بالتالي جعل المنافسة غير متكافئة حيث خسر مناصرو علي أمام بني أمية ولقد أدت طبيعة الصراعات على شتى مناحيها إلى مقتل عمر بن الخطاب دون أن يكون هناك سبب حزبي، وإلى مقتل علي لأسباب واهية أيضاً لا تستدعي القتل، وإلى جانب ذلك فإن بعض المتطرفين من جماعة علي أو ممن ناصروه لم يدركوا أن الظروف التي طرأت يجب أن يتعاملوا معها بحذر وحنكة سياسية وهذا أيضاً ما أدى إلى إسقاطهم وإضعافهم وإخماد صوتهم.

وإذا نظرنا إلى طبيعة الاتجاه الذي قاده الزبير وطلحة وجدنا أن ظاهر الأمر هو صراع على السلطة. فهما يريدان الخلافة. ويرفضان تولية علي بسبب عدم معاقبة قتلة عثمان. ثم يرفضان علياً لأنهما وجدا أن التغيرات الاجتماعية صارت تستلزم تفكيراً جديداً وممارسة جديدة وهذا ما يتناقض مع رؤية علي القائمة على التشدد وحرفية المنهج القرآني والسنة النبوية الشريفة.

وقد حدث الصراع الفكري بين أنصار علي وبين أنصار طلحة والزبير في البصرة حيث طالبا بدم عثمان وباعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين، غير ان الاحداث كانت سريعة ووقعت بعض الاخطاء التي أدت الى نشوب الصراع الدموي

الذي انتهى بزوال أنصار فكرة الزبيريين وإنائهم من ساحة الصراع التي ستشغل فيما بعد للصراع بين الأمويين وبين أنصار علي.

وحين نصل إلى الخوارج وفكرتهم حول الصراع نرى ان الفكرة الدينية كانت مقياسهم في بداية الأمر. وبذلك شقوا عصا الطاعة عليه. وكان الذي أثارهم أنهم رأوا علياً ومعاوية يقتتلان على الخلافة كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً في سبيل الله. ثم اغتالوا علياً وحاربوا معاوية، وما لبثت فكرتهم أن تتمحور حول محور ثابت يقول إن الخلافة ينبغي أن لا تقتصر على قريش من دون المسلمين. فهي ليست حقاً لقريش إنما هي حق لله وينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان من كان من الناس واعتقدوا أنهم وحدهم الجديرون بالسلطة والخلافة. وقد رأت أفكارهم لها مرتعاً خصباً لدى كثير من المسلمين العرب والأعاجم. وظلوا يقومون بثورة إثر ثورة وقد شغلوا الأمويين طوال عشرات السنين من حكمهم. وقد دخلت أفكارهم المغالاة في الحكم على المسلمين وعلى التعامل معهم. وأدى ذلك إلى انشقاقٍ بين صفوفهم وانقسموا إلى عدة أحزاب مما أضعفهم وأضعف أحزابهم.

وباعتبار أن لكل حزب عناصره وأفكاره فإن له أيضاً إعلامه وقد تجلت ظاهرة الاعلام الحزبي على أشدها أيام احتدام الصراع

بين هذه الفئات أو هذه الأحزاب الأربعة فنرى أن للأمويين شعراءهم أمثال عدي بن الرقاع وأن للزبيريين شعراءهم ومنهم ابن قيس الرقيات ويقول في إحدى قصائده المشهورة:

أيها المشتهي فناء قريش
بيد الله عمرها والفناء
إنما مصعب شهاب من الله
تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه
جبروت ولا به كبرياء

وللخوارج شعراؤهم ومنهم عمران بن حطّان والطرماح بن حكيم ومن شعر عمران يقول هاجياً الحجاج بن يوسف:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة
ربداء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة بالضحى
بل كان قلبك في جناحي طائر

وللشيعة شعراؤهم ومنهم كثيّر عبد الرحمن بن أبي جمعة وقد عبر عن فكر الشيعة وما طرأ عليه من تطور في مفهوم الامامية: يقول في ابن الحنفية أبي ابن علي:

هو المهدي خبرناه كعبٌ
أخو الأخبار في الحقب الأوالي

وقال أيضاً:

ألا إن الائـمـة من قـريش
ولاة الحـق أربـعـة سـواء

عـلي والثـلاثـة من بنيـه
هم الأسبـاط ليس بهم خفـاء

فـسـبط سـبط إيمـان وبـر
وسـبط غـيّـبتـه كـربـلاء

وسبط لا تـراه الـعـين حتى
يقـود الخيـل يقـدمهـا اللواء

تغيّب لا يـرى عنهم زمـانـاً
بـرضوى عنـده عسـل ومـاء

ومن شعراء الشيعة أيضاً الكميت بن زيد الأسدي وقد قال:

بني هـاشم رهط النبي فـإنني
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

لقد كان الشعـر أحد وسـائل الاعـلام والدعـاية لتلك الأحزاب وكانت الوسائل الأخرى تشمل الخطب والرسائـل والحوارات وكانت جميعها تلعب دورها في الافصاح عن وجهة نظر كل من تلك الأفكار الحياتية سياسياً واجتماعياً على أية حال فإن حركات كثيرة ظهرت في التاريخ الإسلامي وواقعه، لكنها

جاءت لتشكل ظاهرات أكبر من ظاهرة الحزب. ومن تلك الحركات بعض ما اجتمع عليه أقوام من الفرس تحت ظل الزندقة والشعوبية، ومنها أيضاً الإسماعيلية. والقرامطة وما شابهها من الحركات التي تظهر باستمرار بين فترة وأخرى وجميعها كانت تهدف ومن خلال صراعها للوصول إلى السلطة.

الموقف الإسلامي وآثار الصراع ونتائجه:

لا شك أن الصراع بين شيعة علي والخوارج والزبيريين والأمويين جاء بنتائج سيئة للغاية انعكست على الواقع الإسلامي الاجتماعي والبشري والاقتصادي وحتى السياسي.

أما على الواقع السياسي فقد انقسم المسلمون إلى ثلاث فئات بعد أن انتهى دور الزبيريين فئة بني أمية القائلين بوجوب انحصار الخلافة في قريش، وفئة الشيعة القائلة بحصر الخلافة في بيت آل النبي ﷺ وفئة الخوارج القائلة بوجوب الخلافة دون حصر في أي مسلم أما على الواقع البشري فقد أدت الحروب الطاحنة بين هذه الفئات والأحزاب إلى مقتل عشرات الآلاف من المسلمين وكانت الحروب ضربة بشرية قاسية على المسلمين حيث كان فقدان الرجال والقادة والعسكريين الذين كان يمكن دفعهم للجهاد والفتح ونشر كلمة التوحيد بسرعة أكثر مما جرت عليه زمن الامويين. وقد أتاح مقتلُ الرجال تشريد الابناء وأحياناً ضياعهم وترميل النساء وتشتتهم وبانحصار الحكم والسلطة في

بني أمية فقدت منطقة الحجاز مكانتها الأولى، حيث كانت تعيش حياة لاهية باذخة تزخر بالقصور والغناء وغير ذلك من مظاهر الارستقراطية المسترخية.

وعلى المستوى النفسي والمذهبي فقد راح بعض غلاة الفكر وبعض المدسوسين يشوهون كثيراً من الشخصيات الإسلامية العظيمة كشخصية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وكذلك يشوهون بعض التعاليم الإسلامية، ويفسرون القرآن والسنة حسب أهوائهم فيطعنون في أعدائهم من الاطراف الاخرى ويعلون من قدر قادتهم حتى بلغ ببعضهم الحد إلى تأليه علي: مثلاً وهذا ما فعله اليهودي عبد الله بن سبأ الذي أراد أن يفعل بالإسلام مثل ما فعل بولس في الديانة النصرانية.

وعلى المستوى النفسي ذاته فقد عمت موجة احباط واسعة بين المسلمين ما زالت آثارها تفعل فعلها إلى الآن في المسلمين، والجميع يتساءلون، كيف يقتل المسلمُ المسلمَ، وكيف يتحارب الصحابة؟ وكيف تُهاجم الكعبة وتُحاصر وتُضرب بالمنجنيقات. لماذا قتل علي؟ لماذا قُتل عثمان؟ لماذا قتل الحسن والحسين ومصعب والزبير وطلحة وعبد الله؟

إن الموقف الإسلامي من تلك الأحداث التي أشعلتها العصبيات القبلية والحزبية هو موقف واضح لا لبس فيه. العودة إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة بصدق وإخلاص. وترك الطمع الدنيوي والتنافس على السلطة والحكم إن الإسلام

يرفض ذلك الاقتتال الحزبي والقبلي لأنه اساساً يرفض الحزبية ويرفض القبلية، وقد كان القرآن واضحاً في الحديث عن علاقة المؤمن بربه والمؤمن بالناس.

إن المسلمين الذين يتمسكون بروح الإسلام يقولون إن الخليفة أو الإمام نائب عن صاحب الشريعة في حفظ الدين فهو يحمل الناس على العمل بما أمر الله سبحانه وهو رئيس السلطة القضائية والإدارية والحزبية ولكن ليس لديه سلطة تشريعية إلا تفسيراً لأمرٍ أو اجتهاداً فيما ليس فيه نص.

وكل مسلم يدرك ويعرف أن الدين ما جاء إلا من أجل المساواة والحض عليها، والعدل الاجتماعي والعمل على تحقيقه. **والإسلام جاء ثورة شاملة ـ إن صح التعبير ـ اجتماعية توفرت لها كل أسباب التغيير، ودعوة للتوحيد ونبذ الأصنام. الإسلام جاء** تغييراً إنسانياً شاملاً جاء ضد الظلم الاجتماعي وحقوق الملكية المقدسة واستبداد الطبقات القوية بالطبقات الضعيفة كما كان وما يزال رؤية جديدة للعالم في شتى الجوانب، علاقة الإنسان بالكون وبالناس لم ينتصر الإسلام بقوة السيف وسفك الدماء بل انتصر بتطبيق الشريعة ولم يدعُ إلى القبلية والتعصب الحزبي.

لذلك يرفض الإسلام كل أشكال التعصب الذي جرى بين تلك الأحزاب التي تصارعت بالسيف وسفك الدماء، وطالما هو شرعة الله فإنها كما رفضها سابقاً يرفضها لاحقاً. فالنفس

الشرعي لا مجال للتحريف فيه. ونظام الحكم واضح لا لبس فيه.

لقد كانت نتائج تلك الحروب الحزبية وخيمة على المسلمين لأن بعض دعاتها ابتعدوا عن المنهج القرآني ودخلت في نفوسهم اغراءات السلطة والحكم وما كان على الشعب إلا أن يدفع الثمن غالياً، يدفع أبناءه وأمواله ورجاله وتُفنى أراضيه وتحرق بيوته.

لقد جاء الإسلام رافضاً لكل أشكال الحزبية لأن فيها تحريفاً للشرع وانحيازاً عن أوامر الله ورسوله. جاء الإسلام رافضاً لها لأنها خرقٌ للمساواة والعدل وبهذا الشكل نجد صدى المنهج الإسلامي واضحاً في النظرية العالمية الثالثة التي جاءت من خلال الكتاب الأخضر. وإذا ما نظرنا نظرة متفحصة لبعض الأحزاب التي تصارعت في القرن الأول الهجري نجد أنه ينطبق عليها القول:

(الحزب ليس أداة ديمقراطية على الإطلاق لأنه يتكون إما من ذوي المصالح الواحدة أو المكان الواحد أو الرؤية الواحدة أو الثقافة الواحدة. ويؤدي الصراع الحزبي على السلطة إلى تحطيم أسس أي انجاز للشعب ويخرب أي مخطط لخدمة المجتمع أو الحزب أداة حكم دكتاتورية تمكّن أصحاب الرؤية الواحدة أو المصلحة الواحدة من حكم الشعب بأكمله أي شعب فالحزب هو

الأقلية بالنسبة للشعب والحزب يقوم أساساً على نظرية سلطوية تحكمية أي تحكم أصحاب الحزب في غيرهم من أفراد الشعب يفترض أن وصوله للسلطة هو الوسيلة لتحقيق أهدافه)[1].

كيف دخلت الحزبية عالمنا العربي الإسلامي المعاصر؟

قلنا في صفحات سابقة أن الحزبية ظاهرة غربية وليست عربية ولا إسلامية. وقلنا أيضاً إن الانقسام الذي حدث في صدر الإسلام وأدى إلى بروز تيارات أربعة مختلفة في نظريتها وعناصرها لم تشكل أحزاباً بالمفهوم السياسي المعاصر. إنما هي ظواهر انقسامية كان الطابع القبلي هو مؤججها وصانع حروبها ولهذا السبب فإننا لا يمكن أن ندرجها في إطار ما يسمى بالأحزاب السياسية بالمفهوم الحديث والذي نعيش عالمه منذ العشرينات وحتى اليوم.

وحين نقول إن الحزبية ليست ظاهرة عربية وليست إسلامية فإننا ندرك تماماً أن الإسلام ليس حزباً ولا يدعو إلى الحزبية والتحزب بل هو يحارب هذه الظاهرة، ورأينا سابقاً أن تلك الانقسامات التي حدثت خالفت في نظراتها ومسلكياتها كثيراً من التشريع الإسلامي الرافض للنزاع والقتل والاضطهاد.

بينما جاء الإسلام هكذا فإننا نرى الأحزاب الاوروبية

---

(١) الكتاب الأخضر ص 18 حل مشكله الديمقراطية.

تخلقها افكار الناس بل هي وليدة الفكر الوضعي وليس وليدة دين أو شريعة. ولهذا نقول إن هذه الظاهرة تتوافق مع مجتمع تحلل من قِيَمِهِ ليس له دستور إلّهي، فهو يتخبط برؤيته كما يتخبط بوضعيته وماديته ولو يُتاح للغرب مثل ما أتيح للمسلمين من قرآن وشريعة لتغيرت الأمور تغيراً جذرياً في ذلك العالم وتوجهت الأحزاب الاوروبية التي هي على رأس السلطة في اوروبا توجهاً استعمارياً كلياً وراحت تقتسم العالم العربي والإسلامي منذ بداية هذا القرن ومع نهاية الحرب العالمية الأولى كانت جيوش الاستعمار تحتل العالم العربي وتضعه تحت السيطرة السياسية والاقتصادية وما إلى ذلك.

ونتيجة لهذا الاحتلال راحت جماعات كثيرة تفكر بتشكيل كتل وأحزاب على غرار تلك التي وجدت في بريطانيا أو فرنسا أو غيرهما من البلدان الاستعمارية، لقد كانت الأوضاع العربية والإسلامية ذات خصوصية مختلفة عما هي عليه في العالم الغربي. فهي بشكل عام بلاد متخلفة خارجة من عصور طويلة ساد فيها التخلف والقصور الاجتماعي والفكري والعلمي. ولما كانت الأحزاب مفرزات هذه العصور فقد جاءت بشكل عام هشة تارة ومشوهة تارة أخرى وضعيفة الفكر ومفككة التنظيم. وقد اقحمت الأشكال الاوروبية للحزب وطُبقت في هذا العالم الثالث بحيث جاءت أيضاً صدى لها لا تختلف عنها في فكرها وأسلوب عملها التنظيمي.

ولو تعقبنا نشأة وتطور الظاهرة الحزبية في العالم العربي والإسلامي نجد أنه لا يمكن أن نضعها في المقياس الذي كانت عليه أحزاب اوروبا. فالتطور الحزبي في أغلب البلدان العربية تحول إلى المؤامرات والعنف. ومع بداية القرن انشىء الحزب الوطني في مصر على يد مصطفى كامل. وفي عام ١٩٢٤ شُكل حزب الوفد وفي بعض البلدان كسوريا ولبنان كانت التجمعات الحزبية مجرد إطار سطحي يعكس انقسامات دينية وطائفية عميقة.

وقد أدرك الاستعمار الغربي الذي يحتل الوطن بشكل شبه كامل أنه من خلال تغذية الروح الطائفية والاقليمية يمكن إنشاء أحزاب تكون موالية له منفذة لسياسته في المنطقة. وهذا ما حدث فعلاً في فلسطين ولبنان وسوريا وغيرها من البلاد العربية الأخرى. ونتيجة لانعكاسات الفكر الغربي بشتى مناحيه القومية والاممية أخذت تظهر بعض الأحزاب التي تتبنى النظريات الفكرية المستوردة دون الالتفات إلى الواقع المُعاش أو إلى التراث الفكري العربي والإسلامي، ورأوا أن حل مشاكل التبعية والتخلص من الاستعمار لا بد أن يكون عن طريق تشكيل أحزاب شبيهة بالأحزاب الاوروبية التي تبنّت النظرات القومية، والاممية الشيوعية.

وفي إطار آخر وبسبب نمو الروح القومية العربية نشأت

أحزاب أخرى تبّنت تحديث الفكر القومي بعيداً عن الروح الإسلامية وطرحت شعارات التحرر والوحدة وراحت تناضل الوجود الاستعماري تارة والشكل السلطوي الوطني المرتبط بالاستعمار تارة أخرى حتى استطاع بعضها الوصول إلى السلطة وتبيّن من خلال ممارساتها أنها تفتقد لأبسط أنواع الفكر المناسب للواقع العربي أو الإسلامي الذي نعيشه.

ومن خلال نظرة لمجمل واقع تشكيل الأحزاب في المنطقة العربية والإسلامية نجد أن الاستعمار بفكره الهدام رأى أن يصنع أحزاباً محلية إقليمية تقوم نظرياتها على تبني فكرٍ وهمي مضخم يقول بخصوصية كل اقليم أو قطر وتميّزه عن غيره من الأقطار المجاورة. فنرى أنه في لبنان استطاع الاستعمار الفرنسي زرع الفكر الطائفي الإقليمي لدى أوساط اللبنانيين على شتى انتماءاتهم.. فأوجد حزب الكتائب، وحزب الأحرار الوطنيين. في الطرف الطائفي المسيحي المعتمد أساساً على الثقافة الفرنسية والفكر الفرنسي وأوجد لدى طائفة الدروز حزباً آخر يدافع عن وجهة نظر الطائفة وسمي بالحزب التقدمي الاشتراكي، وقد رافق ذلك وجود أحزاب صغيرة أخرى مثلت الطوائف جميعها في لبنان حتى أصبح في لبنان الآن أكثر من عشرين حزباً يمثل الطوائف والفئات المتنوعة والكثيرة في هذا الجزء الصغير من عالمنا العربي. فللموارنة وُجد اكثر من حزب، وللمسلمين وجد اكثر من حزب ينتمي إلى السنة تارة وللشيعة تارة اخرى، ووُجد

للأرمن حزبان، وللأكراد أكثر من حزب وهكذا دواليك حتى باتت تلك الأحزاب تحصر نفسها في فكر طائفي مريض وضيّق جداً. وكانت وسيلتها للتفاهم قوة السلاح ومزيداً من القتل والدماء. وكانت الحزبية في لبنان أسوأ ما شهده العصر الحالي من انقسام تيارات وأسوأ ما شهده الناس من جريمة وسيل دماء.

الحزبية جاءت طعناً في الشريعة الإسلامية:

كما طعنت الصراعات مسار الإسلام في عصر صدر الإسلام وأضعفت المسلمين فإن الحزبية الحديثة والمعاصرة في عالمنا العربي والإسلامي جاءت طعناً في الإسلام والمسلمين من حيث تشعر أو لا تشعر ومن حيث أنه خطط لها أم لم يخطط.

فبعد سقوط العثمانيين وخروجهم من الأقطار العربية غاب آخر شكل من أشكال الخلافة الإسلامية رغم ما وقعت فيه من انحرافات حادّة أججت الشعور الوطني والقومي المعادي لها في أقطار العالم العربي والإسلامي. إضافة لما فعله الاستعمار وجيوشه من تأجيج المعاداة ضد الأتراك.

وكان للشيوعية التي أخذت بالتمدد بعد عام ١٩١٧ أثر وصدى لدى أوساط كثير من العرب الذين وجدوا فيها ملاذاً وطريقاً للتخلص من الإقطاع ومن القوى القاهرة المتسلطة. وراحت تعمل في الخفاء على تأسيس أحزابها معتمدة كلياً على

النظرية الشيوعية الماركسية. وضاربة عرض الحائط كل القيم الإسلامية والقرآنية، بل إنها صرحت بأن الإسلام عقبة في طريق التقدم والتخلص من الإقطاع والاستغلال.

وراحت تنظر هذه الأحزاب إلى الواقع العربي الخاص من منظور ماركسي ظانّة أن الثوب الماركسي يطابق جسد الواقع العربي أو الإسلامي، وقامت نظرية هذه الأحزاب على مبدأ صراع الطبقات ونادت بدكتاتورية العمال، وفعلت على المستوى النظري مثل ما فعلت الأحزاب الشيوعية في العالم الغربي. وقد وطدت علاقاتها الاستراتيجية بالاتحاد السوفياتي منذ نشأتها في أواخر العشرينات والثلاثينات وراحت تعمل في الخفاء وتنشىء أفكارها وتجمع في ظل نظريتها عناصر كثيرة من الناس لاسيما الشباب.

رأت هذه الأحزاب ـ من خلال منظورها ـ أن حل مشكلة الدين لا تأتي إلا عن طريق إلغائه. وقالت إن في المجتمع العربي مسلمين ومسيحيين وطوائف أخرى. فحتى بدون الفارق الديني يجب أن يتحلل الشيوعيون منه وينتهجوا منهجاً جديداً في الفكر وبنظرهم فإن الدين عامل مؤثر في بقاء التخلف. وهدف الأحزاب الشيوعية هو القضاء على هذا التخلف. ومن هنا فقد جاء عداء هذه الأحزاب للإسلام إضافة لذلك فقد ركزت أفكار هذه الأحزاب على إلغاء دور الإسلام في نهضة الأمة العربية والأمة الإسلامية. وقد افترضت نظراتنا أن الشيوعية ستحل

مشكلة الأقليات والطوائف والعقائد وذلك من خلال انخراط أبناء هذه الفئات في الأحزاب الشيوعية.

وإذا تفحصنا طبيعة القيادة لهذه الأحزاب وجدنا أنها تنتمي لفئات مغايرة للإسلام وللعروبة فإما أن تكون القيادة من عناصر مسيحية، أو من عناصر غير عربية، قد تكون كردية أو شركسية أو هي من طوائف ومذاهب دينية انشقت عن الإسلام والمسلمين في فترات زمنية سابقة.. في لبنان تتمحور القيادة في الحزب الشيوعي حول المسيحيين أمثال جورج حاوي، وفي سوريا تتمحور القيادة في الحزب الشيوعي المنقسم إلى قسمين حول المسيحيين والأكراد، أمثال دانيال نعمة. وخالد بكداش. ويوسف يزبك وغيرهم ونرى أن أكثر أعضاء هذه الأحزاب الشيوعية هم من الأقليات الدينية والعرقية التي عاشت في الوطن العربي منذ ثمان مئة سنة على أكثر حد وتقدير.

أما في فلسطين فإن الحزب الشيوعي كان يعتمد في كوادره الأولى على اليهود. وان بعض اليهود السوفيات الأوائل ممن هاجروا من الاتحاد السوفياتي هم من حمل الفكر الشيوعي وزرعوه في المنطقة. ومنذ مطلع العشرينات نشأت الحركة الشيوعية بين صفوف هؤلاء اليهود السوفيات المرتبطين بالمشروع الصهيوني وظلت الحركة الشيوعية حتى أواخر الثلاثينات مرتبطة بنشأتها اليهودية، وقد نادى بعض العرب بتوحيد الجبهة المعادية

للاستعمار مع بعض عناصر اليهود وعناصر عربية في الحزب الشيوعي إلا أنه ظل حزباً يهودياً في تركيبه وتوجهه. وقد كانت نظرية الشيوعيين اليهود تنطلق من التوفيق بين الماركسية والصهيونية لاسيما أن اليهود المهاجرين من روسيا القيصرية كانوا من دعاة الشيوعية والانقلاب على القيصر الروسي. وقد دعا هذا الحزب إلى هجرة اليهود من روسيا إلى فلسطين، ولاسيما العمال منهم. وقد طُبع تيار الحزب الشيوعي في فلسطين بطابع يهودي صهيوني قومي وافترض أن العرب متخلفون وعليهم في فلسطين أن يقبلوا الثقافة الأعلى الآتية عن طريق اليهود الشيوعيين المهاجرين من أوروبا الشرقية.

وقد استطاعت الصهيونية أن تجعل من أعضاء الحزب الشيوعي قوات بوليسية تستعملها المنظمة الصهيونية ضد الفلاحين العرب.

وباعتبار أن نظرية الحزب الشيوعي تقوم على مبدأ الصراع الطبقي فإن الشيوعيين العرب والشيوعيين اليهود يجب أن يتحالفوا ضد البرجوازية العربية والإقطاع وضد البرجوازية اليهودية التي هي رأس الحركة الصهيونية العالمية.

ومن هنا فإن هذا الحزب تحالف مع اليهود تحت شعار أنهم عمال وشيوعيون ضد أبناء وطنهم ممن أطلقوا عليهم برجوازيين وإقطاعاً.

ويدعي أصحاب الشيوعية العربية في فلسطين أن الظروف السياسية جعلتهم يناضلون من داخل صفوف الحركة العمالية اليهودية.

وقد أصدرت لجنة يافا للحزب الشيوعي بياناً عام 1924 إلى العمال اليهود طلبوا فيه التعاون ضد الانكليز. وقد جاء في البيان (ليعش التضامن بين العمال اليهود والعرب. ولتعش المعارك الطبقية ضد برجوازيتنا وضد البرجوازية الاجنبية). لقد نظر الحزب الشيوعي الفلسطيني في العشرينات والثلاثينات إلى المسألة القومية كما ينظر إلى أية مسألة أخرى. ولم يتمكن من تلمس خصوصيتها. وفي عام 1932 أصدر الحزب بياناً وجهه إلى العمال اليهود والعرب قال فيه مشدداً على شعارات الحزب. (فليسقط الأفندية الاقطاعيون الخونة، ليحيا الكفاح المشترك بين العامل العربي والعامل اليهودي الثائر! وقد عمل الحزب الشيوعي جاهداً مع الشيوعيين اليهود على تصفية العناصر الدينية الإسلامية التي كانت تقود الحركة الوطنية الفلسطينية وذلك بحجة أنها رجعية وتتحالف مع الاقطاع وإثر اندلاع الموجة الثانية للثورة عام 1937 عارض الحزب الشيوعي تجدّد الكفاح المسلح والجهاد ضد اليهود، وبدلاً من ذلك دعا هذا الحزب إلى تصعيد الكفاح السياسي فقط. علماً أن الثورة الجهادية في فلسطين من عام 35-39 كانت في طابعها العام جهادية إسلامية وقادها علماء ومجاهدون مسلمون أمثال عز الدين القسام وفرحان

السعدي والشيخ رشيد العبد الشيخ وغيرهم. ولعل دعوة الحزب للعمل السياسي دون الجهاد ومقاومة الاحتلال يعود إلى كون أكثر القياديين في هذا الحزب هم من العناصر الشيوعية اليهودية. هذا ما يؤكد أن مثل هذه الأحزاب لا بد أن تكون معادية للمنهج الإسلامي. وللإسلام بشكل عام.

وحين احتُلت فلسطين عام 1918 لاحت في الأفق تشكيلات حزبية شيوعية في فلسطين المحتلة. واستطاعت الأوساط الصهيونية أن تغذي هذا الاتجاه لتحقق ما تدعيه من ديمقراطية معينة في الكيان.

وإذا نظرنا إلى واقع الأمر منذ النكبة عام 48 وحتى الآن نرى أن الحزب الشيوعي وحزب راكاح الصهيوني يضمان عناصر يهودية وأخرى عربية ومن خلال الصراع الحزبي الذي يزيّف الديمقراطية حصل (راكاح) على بعض المقاعد في ما يسمى الكنيست الصهيوني وكان منذ تأسيسه يتطلع إلى الوصول للبرلمان. ولم يكن صراعه يوماً من أجل إزالة الاحتلال. وقد خلق حالة من التعاون بين العناصر الشيوعية العربية واليهودية مما أدى إلى إضعاف المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين أما في العراق والسودان وغيرهما من الأقطار العربية فقد ساهم الحزب الشيوعي في شق صفوف الشعب والسعي دوماً للانقضاض على السلطة والارتباط الوثيق بالشيوعية العالمية التي تتزعمها روسيا السوفياتية.

وقد طرحت كافة الأحزاب الشيوعية العربية في تنظيراتها وممارساتها معاداة المسلمين والإسلام واعتبرت الدين مناقضاً أساسياً لها وعليه فيجب قمع المسلمين ومحاربتهم والتشهير بهم، ولعل ذلك عائد إلى ما تقوله الماركسية عن الدين (الدين أفيون الشعوب) وقد تلقفوه شعاراً واضحاً يجب العمل به، من خلال قمع الحد الديني الإسلامي ورفض التعاليم الإسلامية جميعها.

إن الأحزاب الشيوعية التي تربت على استيراد النظرية الشيوعية الماركسية من روسيا لم تنظر إلى الواقع العربي الإسلامي نظرة حقيقية واقعية. لقد ظنت أن ظروف اوروبا الشيوعية أو ظروف العالم كله ظروفاً واحدة فراحوا ينظرون ويسعون إلى الوصول للسلطة بكل الأشكال. ولاسيما تلك الأشكال الدموية التي شاهدنا بعضاً من فصولها في العراق أيام عبد الكريم قاسم وشيوعييه الدمويين.

لماذا يقف الإسلام ضد الأحزاب الشيوعية؟

من طبيعة الشريعة الإسلامية أنها ترفض التحزّب، وترفض الصراعات من أجل السلطة وأساليبها الدموية وغيرها ولما كانت العقيدة الإسلامية تقوم على شريعة القرآن الإلهية، فكان لا بد أن تكون ضد كافة الأفكار الوضعية ولا سيما الأفكار الشيوعية الإلحادية القائمة أساساً على مبدأ الصراع للوصول إلى السلطة وعلى مبدأ معاداة الأديان ومبدأ رفض التعاليم الإلهية الخاضعة

لقوانين الخالق سبحانه وتعالى.

بطبيعة الحال فإن الإسلام يقف بشكل حازم في وجه التيارات الفكرية الإلحادية والشيوعية لأنها أساساً تقوم على مبدأ إنكار الخالق وإنكار الشرائع السماوية والأخلاق الإسلامية السامية.

وإذا عرفنا أن مبدأ الإلحاد جاء معادياً بشكل كلي للإسلام فإن العداء والتناقض يكمنان منذ البداية في تغاير المبادىء وتناقضها. وبالتالي يكمنان في طريقة حل المشاكل الإنسانية إن كانت على مستوى الجماهير أو على مستوى القيادة والسلطة وإذا كان ذلك كذلك فما هي الأسس التي لا يمكن اللقاء فيها بين الإسلام والحزبية الشيوعية؟

ضمن هذا الإطار لا بد لنا أن نتعرف أولاً على التناقض المبدئي في الأفكار وثانياً لا بد من التعرف على ممارسات الأحزاب الشيوعية وتطبيقاتها المسلكية المنافية تماماً للروح الإسلامي وواقع المسلمين.

فالشيوعية تقوم أساساً كما قلنا على أفكار وضعية من صنع الناس وهي قابلة دوماً للخطأ والتساقط ومن ثم التناقض في جوهرها ونظريتها بينما يقوم الدين الإسلامي على دستور إلهي ليس قابلاً للخطأ، بل هو صالح لكل زمان ومكان لأنه يستند على القرآن المنزل من السماء.

أما المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فإنها لدى

الأحزاب الشيوعية تقوم على مبدأ صراع الطبقات. وهذا الصراع يعني بالمحصلة عداء طبقة لطبقة كطبقة العمال وعدائها للبرجوازية أو الاقطاع.. وتصنيف الطبقات لدى الشيوعية هو تصنيف يقوم على افتراض أن في المجتمع طبقاتٍ مميّزة ويجب تغذية الصراع بين كافة الطبقات حتى يتسنى لطبقة العمال أن تسود وتتسلم السلطة. وعندها لا بد من تطبيق ديكتاتورية العمال التي ينادي بها الشيوعيون.

وعندما تتسلم هذه الطبقة السلطة فإنها بذلك شأنها شأن الحزب الذي يحكم أو الذي يسعى إلى الحكم. فالطبقة شريحة اجتماعية ذات مصلحة مشتركة تتسلط على بقية الناس والطبقة ليست هي الشعب (والشعب ليس هو الطبقة ولا الحزب ولا القبيلة ولا الطائفة وإنما تلك جزء من الشعب فقط وتمثل أقلية فيه وإذا سادت على المجتمع الطبقة أو الحزب أو القبيلة أو الطائفة صار النظام السائد آنذاك نظاماً ديكتاتورياً)[1].

وهذا يتنافى مع حكم الشورى الإسلامي ويتنافى مع مبدأ - الحاكم مسؤول أمام الله والناس. ويتنافى مع الديمقراطية الحقيقية التي هي حكم الشعب للشعب ومن الشعب إن الإسلام يقوم أساساً على عدم التفرد بالحكم ويحارب كل أشكال التسلط الفئوي على الشعب ولذلك فالإسلام يقف وبشكل حازم ضد

---

(1) الكتاب الأخضر. ص 28. الفصل الأول. حل مشكلة الديمقراطية:

الشيوعية التي تؤمن بالصراع الطبقي وسيادة الطبقة الواحدة.

لقد رفض الإسلام ويرفض أي شكل من أشكال العنف والإرهاب والقتل بين أبناء الشعب المؤمن بعقيدة واحدة، ويؤمن ومن خلال نصوص القرآن بالحوار العقلي والمنطقي لحل كافة المشاكل في المجتمع، بينما تؤمن النظرية الشيوعية التي هي نظرية كل شيوعي بوسيلة العنف الدموي للوصول إلى السلطة. وهذا ما حدث فيما يسمى ثورة أكتوبر عام 1917 والتي حدثت في روسيا وراح ضحيتها عشرات الآلاف من أبناء الشعوب الروسية. (ووفقاً للديموقراطية الحقيقية فلا مبرر لطبقة أن تسحق بقية الطبقات من أجل مصلحتها هي.... والإباحة بهذه التصفية تعني نبذ منطق الديموقراطية والاحتكام لمنطق القوة. إن مثل هذا الإجراء عمل ديكتاتوري)[1].

وإذا نظرنا لطبيعة الوصول إلى السلطة في الأنظمة الشيوعية جميعها وجدنا أنها طبيعة دموية قامت على الصراعات المسلّحة بين أبناء الطبقات الشعبية. إن كان ذلك في الصين أو روسيا أو دول الكتلة الشيوعية السابقة وحتى دول العالم الثالث التي قامت الشيوعية في بعضها بصراعات دموية للوصول إلى السلطة.

وبطبيعة الحال فإن المفهوم الإسلامي للصراع يقوم على أساس الصراع مع الأعداء الحقيقيين للإسلام وليس ذلك

(1) الكتاب الأخضر ص 29. الجزء الأول حل مشكلة الديموقراطية.

الصراع بين أبناء الشعب الواحد المنتمين لدين واحد وعقيدة واحدة.

ولما جاء الإسلام مدركاً كل الإدراك لنتائج الصراعات الحزبية والقبلية ومدركاً أنها تقضي على أبناء الشعب الواحد فقد رفض ويرفض ما قامت عليه الأحزاب الشيوعية في المنطقة العربية الإسلامية. وقد جاءت الأحداث الحديثة والمعاصرة لتبرهن أن موقف الإسلام هو الموقف الصحيح تجاه تلك الصراعات.

ففي معظم البلدان العربية قامت أحزاب شيوعية، وحملت في عقليتها مفهوم الصراع وراح بعضها يحاول بشتى الوسائل الشرعية وغير الشرعية الرسمية والسرية الوصول إلى السلطة وقمع الآخرين من أبناء الشعب.

فمن خلال الأحداث التي وقعت منذ أكثر من أربعين عاماً على الساحة العربية والأحزاب الشيوعية في المنطقة تلعب دوراً مخرباً تارة ودموياً تارة أخرى. ففي سوريا كان الحزب الشيوعي السوري من أكثر الأحزاب تدميراً للوحدة العربية التي قامت بين مصر وسوريا. فقد لعب هذا الحزب دوره التدميري للوحدة من خلال رفضه لنهج عبد الناصر القومي. ثم تحالف هذا الحزب مع القوى الرجعية الأخرى وأسقطوا الوحدة. وفي زمن الانفصال الذي بقي حوالي ثلاث سنوات دخل الحزب الشيوعي

المنافسة البرلمانية مع القوى الأخرى وعمل على تكريس الانفصال وضرب المد القومي في المنطقة. إضافة لذلك فإن هذا الحزب شارك في مؤتمرات الشيوعية العالمية في الاتحاد السوفياتي ودول النظرية الشيوعية جنباً إلى جنب مع الحزب الشيوعي اليهودي الصهيوني. وادعى أن نضال الشيوعيين واحد في العالم وهذا النضال هو ضد البرجوازية العربية والبرجوازية الصهيونية وغيرها من برجوازيات العالم.

فكيف لا يكون موقف الإسلام عدائياً من الأحزاب الشيوعية التي تتحالف مع شيوعيي الصهاينة بحجة أن النضال طبقي ويجب أن تتعاون فيه كافة القوى الشيوعية؟

ولعل العداء والرفض الإسلامي للمنهج الحزبي الشيوعي يأخذ أيضاً أبعاداً أخرى لأن هذه الأحزاب أباحت ما هو محرم وصنعت لنفسها أخلاقيات خاصة متنافية مع أخلاق المسلمين والإسلام. فتحت شعار الحرية الشخصية أباحوا الاختلاط بين الجنسين. وقد قالوا إن الشيوعية حلّت للشباب والفتيات مشكلة الجنس والعقد الجنسية من خلال تلك الإباحية. عداك عن أن هذه الأحزاب لا تقيم وزناً للأخلاق، فشرب الخمر مباح لأنه أمر طبيعي بالنسبة لهم والزنا يعتبرونه تعبيراً عن الحرية الشخصية وما إلى ذلك من أخلاقيات هي مناقضة للأخلاق الإسلامية ومثلها بكل أشكالها وبكل ممارساتها.

وقد غذى الحزب الشيوعي السوري التنافر بين أبناء الشعب الواحد حتى أن العداء كان يقع بين الأب وابنه وابنته.

والأغرب من ذلك كله فإن هذا الحزب ضم بين صفوفه كثيراً من الشباب الفاشلين دراسياً واجتماعياً. وباعتبار أنه يقيم علاقات حميمة مع الأنظمة الشيوعية الأوروبية راح يرسل الطلبة ليدرسوا فيها، علماً أن الجامعات التي يدرسون فيها لا يُعترف بها دولياً وهي جامعات في المستوى الأدنى في العالم من حيث طبيعة العلوم التي تدرّس فيها والمناهج الهامشية التي تعتمدها. وكثير من الطلبة عادوا إما متزوجين من أوروبيات شيوعيات متحللات من كل القيم والمثل التي تعارف عليها الإسلام والمسلمون وإما يعودون حاملين معهم وجوه الخيبة العلمية والفشل الذريع في تحقيق مطامح أسرهم ومجتمعهم. هذا إذا لم يغرقوا في لجّة الانتماء للإلحاد والشيوعية الغربية التي لا تمت بأية صلة للواقع العربي الإسلامي ومشاكله الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

إن الإسلام يقف ضد هذه الأحزاب لأنها سياسياً تقوم على صراع الناس وقمعهم لأبناء شعبهم. واجتماعياً تقوم على نشر الأخلاق الأوروبية السافلة وفكرياً تقوم على الإلحاد وتخريب القيم الفكرية للإسلام وما شابه ذلك.

أم في العراق فقد استطاع الشيوعيون كسب عطف عبد الكريم قاسم الذي غيّر مجرى ثورة (14 تموز) من قومية إلى

ديكتاتورية. وقد استطاع قاسم أن يغذي هؤلاء الشيوعيين ويمنحهم صلاحيات واسعة في الحكم. وبالتعاون مع الحزب الشيوعي السوري سراً وعلانية راحوا يضربون القوى القومية والإسلامية بشكل عنيف ودموي وأقاموا مجازر شتى بحق الضباط والجنود والمدنيين والشعب العراقي بشكل عام وقد أقيمت محاكمات عسكرية شتى حكمت على الوطنيين بالإعدام. وكان من بين الذين أعدموا ضباط كبار ومعروفون بوطنيتهم وصدق إنتمائهم لأمتهم أمثال (ناظم الطبقجلي) وغيره من الضباط الذين أعدموا بحجة أنهم يريدون قلب نظام الحكم القائم.

وقد عادى حزب الشيوعيين العراقي المنهج الوحدوي القومي الذي كان يقوده عبد الناصر وبعض القوميين الشرفاء من أبناء الأمة العربية. وكانت معاداة ذلك الحزب شرسة ضد الإسلام والتيارات الإسلامية. وقد حاول الشيوعيون تغيير كثير من قيم المجتمع العربي الإسلامي في العراق ولكنهم لم يلبثوا في السلطة طويلاً حيث سقطوا ونالوا جزاءهم العادل على ما اقترفوه من الإلحاد والجرائم وتدنيس المثل الإسلامية.

لقد كرست الأحزاب الشيوعية فكرة أن الدين ضد التقدم وضد التطور. وكرست أن جميع الأحزاب الشيوعية هي شقيقة مهما كانت قوميتها إن كان له قومية!! حتى أن الحزب الشيوعي الصهيوني هو شقيق للحزب الشيوعي السوري وشقيق للحزب الشيوعي المصري أو اللبناني.

وقد ورد في كتاب (الحزب الشيوعي الإسرائيلي) المؤتمر التاسع عشر) في الصفحة 309 ما نصه: (وصل إلى المؤتمر تحيات 33 حزباً شقيقاً عدا تحيات الأحزاب التسعة عشرة الشقيقة التي شارك مندوبوها في المؤتمر التاسع عشر وهم:

1 ـ الحزب الشيوعي في البحرين.
2 ـ الحزب الشيوعي الأردني.
3 ـ الحزب الشيوعي المصري.
4 ـ الحزب الشيوعي السوري.
5 ـ الحزب الشيوعي العراقي.

إضافة للأحزاب الشيوعية في فيتنام وكوريا واستراليا وأندونيسيا. ويوغسلافيا وغيرها من الدول والبلدان.

فإذا اعتبر الشيوعيون أنفسهم أشقاء في كافة أنحاء العالم ومصالحهم واحدة أيضاً فإنهم بذلك يعتبرون الأحزاب القومية والوطنية والحركات ليست شقيقة قد يعتبرونها حليفة مؤقتة ولكنها ليست شقيقة لأنها لا تلتزم العقيدة الشيوعية. وبما أن الإسلام والمسلمين يرفضون أي وجود يهودي في فلسطين لأنها أرض إسلامية فإن تحريرها واجب على كل مسلم، وعلى هذا الأساس كيف يمكن للأحزاب الشيوعية معالجة القضية. وأعضاء الحزب الشيوعي الصهيوني اليهود يرفضون إعادة الحق الإسلامي الفلسطيني إلى أصحابه؟ هل يرضى ذلك الحزب الشيوعي

الصهيوني بعودة فلسطين إلى أهلها؟ وهل شيوعيوه على استعداد للعودة إلى بلادهم والخروج من أرض فلسطين؟ أم أن الشيوعيين العرب يعتبرون الكيان الصهيوني أمراً واقعاً؟ ويعتبرون أن لليهود حقاً في فلسطين الإسلامية أم أنهم سيناضلون سوية مع الشيوعيين اليهود لإخراج بقية اليهود من فلسطين وهل يقبل الشيوعيون اليهود ذلك أم ماذا؟. جميع الأسئلة تقول لن يكون الشيوعيون هؤلاء المجاهدين الذين يحررون فلسطين. طالما أن تلك المسلّمات التي تحدثنا عنها تحكم ارتباطاتهم ورؤيتهم وأفكارهم.

على كل حال فالواقع الذي يتغير في الأنظمة الشيوعية العالمية هو خير دليل على فشل الأحزاب الشيوعية في حل القضايا الوطنية والقومية وقضايا التنمية والتخلف الاقتصادي الذي تعيشه شعوبها.

لقد كانت النظرية الشيوعية المقياس الأمثل للشيوعيين في حل كافة المشاكل. ولكن الذي حدث أن الشيوعية قطعت نصف الطريق وتاهت فإذا بها ترى في النظرية الماركسية أسوأ نظرية اقتصادية في العالم وراحت الأحزاب الشيوعية في بلدان المنظومة الشيوعية تلغي نفسها وتلغي تفكيرها وتلجأ إلى أسلوب جديد من الحياة السياسية، أسلوب تعدد الأحزاب وتصارعها من جديد.

بعد حكم يدوم أكثر من خمسين عاماً يتكشف أن هذه الأحزاب كانت تقوم على الإرهاب ضد الشعب. والدليل أنها فشلت فشلاً ذريعاً في الحصول على نسب مئوية من الناخبين تؤهلهم كي يصلوا إلى السلطة، في ألمانيا الشرقية يحصل الحزب الشيوعي على 16٪ فقط من أصوات الناخبين. وفي بلغاريا يُلغى اسم الحزب الشيوعي بالحزب الاشتراكي وفي بولونيا لم يبق أثر من آثار الشيوعية سوى الجنرال ياروزلسكي الذي أعلن بتاريخ 1990/9/18 أنه سيعتزل السياسة.

وفي تشيكوسلوفاكيا يخسر الشيوعيون مواقعهم تماماً وتظهر على الساحة أحزاب كثيرة تتنافس وتتصارع من أجل الحصول على السلطة والوصول إلى الحكم.

وتقع الشعوب الأوروبية الشرقية تحت وطأة النظريات الرأسمالية فكأنها هربت من الرمضاء إلى النار.

لذلك كله يرفض الإسلام الأحزاب الشيوعية ويرفض أن توجد في الأرض العربية والإسلامية. والإسلام كنظرية سياسية فكرية اجتماعية واقتصادية كفيل بأن يحل كافة مشاكل الشعب العربي وكافة قضاياه الحساسة كقضية فلسطين وقضايا المجتمع التنموية ومسائل التخلف التي جاءت سبباً من أسباب تقدم الغرب صناعياً وعلمياً وهو الكفيل بمنح المسلمين كرامتهم. تلك الكرامة التي فُقدت في ظل حكم الأحزاب الديكتاتورية والتي

تتبنى نظريات مستوردة لا تصلح لا لمجتمعنا ولا لرؤيتنا ولا لواقعنا. وطالما نمتلك نظريتنا الإسلامية المتوافقة دوماً مع واقعنا فلا حاجة لأية نظرية ولا لأي حزب يحل مشاكلنا.

الإسلام وموقفه من الأحزاب القومية والوطنية:

لماذا التناقض؟ لماذا الاختلاف؟ أسباب ونتائج.

ظهرت الأحزاب القومية في الوطن العربي (وهي قليلة جداً) إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، بينما ظهرت الأحزاب الوطنية المحلية منذ بداية القرن، وقد جاء وجودها رداً على سياسة التتريك في العقد الثاني من هذا القرن. ورداً على الأوضاع الاجتماعية التي خلفها الاستعمار الغربي بعد الحرب العالمية الثانية.

وباعتبار أن الأحزاب الوطنية في أطوارها الأولى أيام الحكم الاتحادي التركي لم تأخذ الشكل التنظيمي الحقيقي لصفات الحزب فإن المرحلة الثانية هي التي جاءت مفرزةً أحزاباً وطنية كثيرة وأخرى قومية أخذت أشكال الحزب المنظم الذي تحكمه قيادة معينة وتتلبّسه أفكار خاصة.

وقد تنوعت توجهات الأحزاب وتباينت وذلك بحسب طبيعة تركيبتها الاجتماعية وتوجهاتها وارتباطاتها. وبشكل عام فقد ابتعدت عن المنهج الإسلامي ونحّته جانباً.

في أواخر العقد الرابع من هذا القرن ظهر في سوريا ولبنان الحزب القومي السوري فكان كإيديولوجية وكتنظيم وكاتجاه سياسي صدى للنازية والفاشية اللتين بدأتا صعودهما في ألمانيا وإيطاليا في تلك الفترة، وقد تركبت عناصره في غالبيتها من العرب المسيحيين في لبنان وسوريا وشمال فلسطين. ومن تنظيراته الاعتراف بالأمة السورية وليس بالأمة العربية. فسوريا الطبيعية هي الوطن وما عداه من العرب ليسوا من الأمة ولذلك يجب الصراع من أجل وحدة سوريا وفلسطين ولبنان والأردن لأن الشعب فيها شعب واحد وحضارته واحدة وتختلف كلياً عن حضارة المصريين والعراقيين والجزيرة، وكما يمجد هذا الحزب المسيحية فإنه يعترف (بالمحمدية) وليس بالإسلام. فيقول عن أي مسلم إنه محمدي وذاك مسيحي والآخر يهودي، ويرى هذا الحزب أن اليهودية ليست ديناً وأن موسى ليس نبياً بل هو قائد عسكري مغامر قاد اليهود لاحتلال جزء من الشام.

وتعتمد أفكار هذا الحزب على ما ينظره الزعيم أو الزعماء كعبد الله سعادة وأنطون سعادة في السابق وإنعام رعد وعصام المحايري لاحقاً. ونتيجة لظروف الحرب الأهلية في لبنان انقسم الحزب إلى حزبين لكنهما يستمدان أفكارهما من أقوال الزعيم الذي ترأس الحزب زمناً في لبنان وسوريا.

وتتشابه أفكار هذا الحزب وطبيعة تنظيمه بأفكار الحزب

النازي وطبيعته التنظيمية. وقد وقف هذا الحزب موقف المعادي لعبد الناصر ولمشروع الوحدة بين مصر وسوريا لأن هذه الوحدة مخالفة واضحة لمنظور الأمة السورية وقد بدا واضحاً أن هذا الحزب والحزب الشيوعي السوري وقفا على طرفي نقيض ولكن من منظور غير عربي وغير إسلامي ولا وطني. فالحزب الشيوعي يدخل ساحة العمل السياسي مستفيداً من تحالف الاتحاد السوفياتي مع الدول الغربية ضد ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية ممجداً هذا التحالف ومتعاوناً مع سلطات الاحتلال مخالفاً للاتجاه العام للحركة الوطنية. وقد أحل التناقض العالمي الذي فرضته الحرب العالمية الثانية على التناقض الرئيسي بين الاحتلال وبين مطلب الاستقلال الوطني.

بينما كان موقف الحزب الشيوعي هكذا كان موقف الحزب القومي السوري يطرح الاستراتيجية نفسها للعمل السياسي ولكن بشكل معكوس. بمعنى أنه تبنى الفاشية الهتلرية وأحل بدوره التناقض بين ألمانيا وبين الحلفاء محل التناقض بين الاحتلال ومطلب الاستقلال.

ومع نهاية الحرب الأولى برزت أحزاب كثيرة في مصر غابت عنها الرؤية الإسلامية وجاءت في تركيبتها عاطفية لم تستطع الصمود أمام الاستعمار والنظام الملكي في مصر. وبعد أحداث ثورة 1919 في مصر تبين أن الاستعمار والنظام الملكي غذيا

الأحزاب. وصار الشعب شيعاً يكيد بعضهم لبعض ويتربص بعضهم لبعض وشغلهم الصراع على المناصب عن الكفاح لتحقيق الاستقلال. وقد دل على قصر الرؤية الحزبية تأليف جبهة وطنية تضم زعماء الأحزاب جميعاً ومن ثم الدخول في مفاوضات مع الاستعمار الإنجليزي لينتج عنها معاهدة أبدية ضمنت للمستعمر مطامحه ومطامعه الاستعمارية.

إن قصور الرؤية الحزبية هو الذي أفشل ثورة 1919 فالقيادات أغفلت إغفالاً كاملاً التغيير الاجتماعي الذي يترابط حتماً مع التطلع إلى التغيير السياسي. ونتيجة لهذا القصور أيضاً أصبح الصراع الحزبي في مصر ملهاة تشغل الناس وتحرق الطاقة الثورية في هباء لا طائل من ورائه.

وكانت معاهدة سنة 1936 التي عقدت بين مصر وبريطانيا والتي اشتركت فيها قيادات تضم كل الأحزاب السياسية العاملة في ذلك الوقت بمثابة صك استسلام للخديعة الكبرى التي وقعت فيها ثورة 1919 فقد كانت مقدمتها تنص على استقلال مصر بينما صلبها في كل عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى. لقد دفع كبار الملّاك والاقطاعيين باتجاه تقوية الصراع الحزبي وذلك من خلال كونهم دعامة التنظيمات الحزبية القائمة، وأشركوا فيها بعض الانتهازيين الذين اجتذبتهم عملية تقسيم الغنائم بعد فشل ثورة 1919. وقد استطاع هذا الانحراف أن يجذب إلى الجو الحزبي الفاسد جماعات من المثقفين.

وقد انتهى المطاف بهذه الأحزاب جميعاً إلى الارتماء في أحضان الملكية تارة وفي أحضان الاستعمار تارة أخرى. وترتب عليها أن الواجهة الديمقراطية كانت مضلِّلة لتخدع الشعب عن حقيقة مطالبه. والديموقراطية التي جرت بها ممارستها في مصر في تلك الفترة كانت ملهاة مهينة. فالشعب لم يعد صاحب السلطة وإنما أصبح أداة في يد السلطة أو بمعنى أصح ضحية لها.

ومما يجعل الرؤية الإسلامية تقف متعارضة مع تلك الأحزاب ونقيضاً لممارساتها وأفكارها أن زعاماتها ركعت تلتمس الرضى الذي يصل بها إلى مقاعد الحكم وتخلت بذلك عن الشعب وأهدرت كل قيمة له ناسية بذلك أنها تتخلى طواعية عن مصدر قوتها الوحيدة ومنبعها الأصلي.

وتبين كما هو معروف أن القيادات الحزبية حين تخلع جذورها من التربة الشعبية تحكم على نفسها بالموت والهوان. وطبيعة هذه الأحزاب بحكم تركيبتها وبحكم طبيعة الحزبية ذاتها كانت مهيأة للسقوط تحت أنقاض النظام الملكي الفاسد الذي شاركت فيه جميعها بانحرافاتها عن الأهداف الأصيلة التي كان يجب التزامها لقد كانت جميع الأحزاب المصرية آنذاك شريكة في سياسة ساوم واستسلم وهذا ما ينافي أبسط قواعد الشريعة الإسلامية التي ترفض المساومة على حقوق الجماهير.

لقد كانت القوة الاقتصادية في مصر آنذاك في يد تحالف بين

الاقطاع وبين رأس المال وكان محتماً أن تكون الأشكال السياسية (الحزبية) تعبيراً عن هذه القوة وواجهة ظاهرة لهذا التحالف بين الإقطاع وبين رأس المال المستغل.

(إنه مما يلفت النظر أن بعض الأحزاب في تلك الظروف لم يتورع على أن يرفع في غير مواربة شعار أن الحكم يجب أن يكون لأصحاب المصالح الحقيقية. ولما كان الإقطاع ورأس المال المستغل هما أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد وقتها فلقد كان هذا الشعار أكثر من اعتراف ضمني بالمهزلة التي فرضتها القوى المسيطرة على الشعب المصري باسم الديموقراطية).

ومع دخول الإنجليز واحتلالهم لفلسطين راحت بعض القيادات الإقطاعية والبرجوازية تقيم أحزاباً سياسية كان أكثرها بإيعاز من السلطة الاستعمارية الإنجليزية، وبعضها يتخبط في رؤاه السياسية في ظل الاحتلال. في عام واحد هو 1935 تأسست أربعة أحزاب سياسية إضافة لحزب الاستقلال الذي وُجد قبلها. وبدا أن أول تكتل حزبي قاده (راغب النشاشيبي) وكان موالياً للإنجليز هو وبعض قادة الحزب واستند الحزب في بنيته التنظيمية على رؤساء بلديات وكبار الإقطاعيين الأثرياء وبعض زعماء العشائر. وقد كرس هذا الحزب - (الدفاع) عن الثراء والاستحواذ

---

(1) فلسفة الثورة والميثاق. جمال عبد الناصر ص 169 دار المعرفة بيروت ط 1 1970.

على قدرة عجيبة لجمع الأموال. واستقطابه للأثرياء أدى إلى سياسته المسايرة للاحتلال الإنجليزي. وفي مثل هذه الحالة ضمن الأثرياء وكبار الملاك طمأنينة على مصالحهم وقد انسحب حزب الدفاع هذا من اللجنة العربية العليا وأصبح همه الوحيد مهاجمة مفتي فلسطين أمين الحسيني. وقد أصبح مقر الحزب في القاهرة يدعمه النظام الملكي الرجعي في مصر وبعض رموز الاحتلال البريطاني وجواسيسه. ومما يشكك دوماً في مقدرة الأحزاب السياسية على إبراز موقف عملي تجاه الاستعمار. ما جاء من رفض الأحزاب في فلسطين آنذاك الاشتراك في الإضراب البطولي العام سنة 1936.

الحزبية والقومية: الأفكار والمبادىء واستبعاد المنهج الإسلامي:

لا شك أن الظروف التي نشأت فيها الأحزاب القومية والأخرى الوطنية هي ظروف الصراع ضد المستعمر وتحقيق سمات خاصة للشخصية الوطنية المنتمية للأمة العربية ولما كان الصراع ضد المستعمر يستوجب رؤية شاملة للتصادم مع قوى الاحتلال فقد تنبه المستعمرون إلى ما يمكن أن تفعله الوحدة الداخلية لأبناء الشعب فراحوا يبثون الأفكار التي من شأنها استمالة بعض الأحزاب لمنهجها الاستعماري. وجاءت النتائج سيئة على المستوى الشعبي في كافة الأقطار العربية حيث تصارعت الأحزاب وتطاحنت وبذلك ضعفت المقاومة السياسية

والعسكرية ضد الاستعمار.

وبسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتخلفة في هذه المنطقة فقد ربطت بعض الأحزاب القضايا السياسية بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية. وتأثرت من قريب ومن بعيد ببعض الأفكار الاشتراكية المستوحاة من النظرية الماركسية. وقد حاولت بعض الأحزاب الدمج بين الاستفادة من الماركسية وبين الواقع الذي تعيش فيه. ولكنها في هذا الإطار عاشت مرحلة صراع فكري أدى إلى انقسام الرؤية والمبادىء والأفكار فبعضها طرح القومية باعتبارها الهدف المنشود لأبناء الأمة العربية، لكن الطرح لم يتنبّه إلى أن الإسلام هو الحل لكافة المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولم تتنبه بعض الأحزاب إلى أن الإسلام برؤيته القرآنية ليس تراثاً إنما هو منهج إلهي للبشر في أي زمان وفي كل مكان.

ولم تدرك الأحزاب القومية أن العروبة والإسلام لا ينفصلان، فالعروبة إذا كانت ذات محتوى إسلامي ومضمون قرآني استطاعت إحياء الإنسان العربي الذي عاش قروناً طويلة وهو متخلف عن غيره من الشعوب في كافة المجالات.

وقد ظهرت في هذه الأحزاب القومية تيارات مختلفة نجملها بثلاثة تيارات:

تيار ديموقراطي: يدعو لإقامة دولة عربية واحدة ذات

مضمون ديموقراطي برجوازي تقوم على أساس دستور ليبرالي يعتمد البرلمانية وتعدد الأحزاب القومية ويؤمن بالملكية الخاصة وبالإرث والأخلاقية التقليدية ويرى في حركة القومية العربية الحديثة استمراراً للتاريخ العربي الإسلامي دون الأخذ بروح العصر.

تيار قومي متعصب: ويدعو هذا التيار إلى التأكيد على الرابط القومي وتميّز الأمة العربية بخصائص حضارية وعرقية دون غيرها من الأمم تجعلها في مرتبة متميزة.

تيار قومي اشتراكي: ويؤكد هذا التيار على أن الاشتراكية هي المضمون الأساسي للقومية العربية الحديثة على الرغم من أنه لم ينطلق من الاشتراكية العلمية بمفاهيمها الأساسية. وكان هذا التيار هو السائد.

وقد آمنت بعض هذه الأحزاب بوحدة الأمة العربية وشخصيتها ورسالتها الحضارية وإذا نظرنا إلى واقع الإسلام ومنهجه القرآني لوجدناه أوسع فكراً وأقدر من كل الطروحات الفكرية على حل واقع التجزئة والتخلف والعدالة التي استُلبت من قِبل الحكام الذين استعمروا الوطن العربي الواحد عدة قرون.

فإذا كان طرح الأحزاب القومية قفزة نوعية برأي بعض الباحثين والقوميين فإن الإسلام أساساً قام على مبدأ الوحدة

العربية والإسلامية وهذه الوحدة لا تحكمها نظرية وضعية من صنع البشر إنما تحكمها كلمة لا إله إلا الله، فهي التي توحّد كافة المصالح العربية والإسلامية.

وقد وقعت هذه الأحزاب القومية في مطب مفهوم الاشتراكية الذي تبنّته كحل للحياة الاجتماعية وتطويرها. فلا نظرية بالمعنى الحقيقي تشملها إنما جاءت من خلال الأخذ من هنا وهناك. فرؤيتها كانت تستند كلّياً على التطعيم الفكري الذي خلق تناقضاً كبيراً أثناء التطبيق.

وقد صارعت هذه الأحزاب الأحزاب الوطنية الأخرى التي تتبنى أفكاراً مغايرة أو مشابهة. وهذا الصراع كان يجري ضمن أسس الحياة البرلمانية التي تقوم على التمثيل النيابي وهذا أحد الأخطاء الفاحشة القاتلة التي وقعت فيها هذه الأحزاب. فالبرلمانيون لا يمثلون الشعب. ولا نيابة عن الشعب والتمثيل هو نوع من الخداع الذي يُمارس من قبل الأحزاب التي تجمعها الحياة البرلمانية في نظام سياسي واحد يقوم على التناقض والصراع بين كافة الأحزاب والقوى. وقد استطاعت الأحزاب تلك أن تثير مسألة الصراع متخذة من القضايا القومية مقياساً للتعامل بينها وبين الآخرين. وقد كانت القضية الفلسطينية من أكثر القضايا التي رفعتها تلك الأحزاب كشعارات مرحلية واستراتيجية.

ولما كانت المصلحة الشخصية طاغية على قيادة هذه

الأحزاب فإنها لعبت دوراً ضد القومية العربية والوحدة رغم أنهما شعاران أساسيان لهذه الأحزاب وهذا ما أدى إلى انقسامٍ في الرؤى الحزبية حيث بات تغيير القيادات الحزبية أمراً متواصلاً لا يتوقف.

لقد اعتبرت هذه الأحزاب أن التمسك بالإسلام سيوقف عملية التطور الاشتراكي وبسبب هذا الأسلوب الفكري فقد عمدت الأحزاب القومية إلى محاربة التيارات الفكرية الإسلامية مهما كان اتجاهها ومنبعها. وأصبح فكر الأحزاب هو الفكر المكرّس لتثقيف الجماهير فلا فكر يعلو على فكر قيادييها ولو كان هذا الفكر مستمداً من الشريعة الإسلامية والقرآن.

وبات واضحاً أنه لا يمكن التوافق بين المنهج الإسلامي السياسي وبين منهج تلك الأحزاب. فصار فصل الدين عن الدولة أمراً محققاً على يدِ هذه الأحزاب وأصبحت أشبه بما فعله مصطفى أتاتورك في تركيا حين رفع العنصرية التركية فوق كل اعتبار حتى ولو كان اعتبار الدين والشريعة.

وبدا أيضاً أن قطيعة استراتيجية وقعت بين تلك الأحزاب وبين الإسلام علماً أن الإسلام لا يقر مبدأ الأحزاب أياً كانت ولا يقر سوى الشريعة القرآنية التي تحتاج دوماً للتطبيق وفق أسس متناسبة مع التطور العصري وغير مخلّة بالقواعد الأساسية للشرع القرآني الإلهي.

الحزبية والسلطة. الأدوات. الممارسات. الشعارات والتطبيق:

لم تقم رؤية الإسلام السياسية على ديكتاتورية الفرد أو ديكتاتورية الطبقة فالمنهج الإسلامي يقوم في الحياة السياسية على نظام الشورى والتنفيذ الجماعي لما ورد في القرآن والسنة الشريفة. وقد كان رسول الله ما يزال المثل الأعلى الذي يحتذى إن كان ذلك في أسلوب قيادته السياسية في المسلمين أو قيادته الدينية أو غير ذلك. فلم نجد في حياته ﷺ شيئاً من حكم الفردية أو التفرد بالرأي لا سيما في القضايا السياسية إلا ما أنزله الله عليه وقطع على الناس التأويل فيه. وكذلك لم نر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يقيمان الحكم على مبدأ ديكتاتوري يقهر المسلمين. فالعودة للقرآن وللسنة النبوية هما الأساس في طبيعة الحكم الإسلامي دون سواهما.

ومن هنا يمكن أن نجد طبيعة الحزبية إن كانت تكرس حكم فرد أو طبقة، مخالفةً للشريعة الإسلامية ولطبيعة نظام الحكم الإسلامي.

ومن خلال وقائع التاريخ الحديث والمعاصر نرى أن كافة الأحزاب التي أنشئت في الأقطار العربية تضع في مقدمة أهدافها الوصول إلى السلطة من خلال صراعها مع بعضها أو من خلال صراعها مع قوى خارجية محتلة.

والذي ينظر إلى الواقع العربي يستطيع أن يصنف النظم

الحزبية ويرى إلى أي مدى حققت ظاهرة الحـزبية أهـداف الجماهير.

ففي أكثر الأقطار العربية يتحكم في السلطة حزب واحد قد يتفرد بالحكم دون السماح لمنافس له أو أنه يعتمد إدخال بعض الأحزاب الهامشية في حياة برلمانية رمزية يحكم الحزب الواحد السيطرة عليها.

وقد أدى الانتشار واسع النطاق للحزب الواحد إلى وجود تصنيفات محددة للحزب الواحد ذاته وهذه التصنيفات تعددت وكثرت ولكن أبرزهـا كان الأحـزاب الشيوعيـة، والأحزاب الفاشية، والأحزاب القومية. وقد صنف بعض الباحثين نظم الحزب الواحد إلى نظام الحزب المسيطر والذي يوجد إلى جانبه أحزاب ضعيفة لا تؤثر في مسار الدولة وقراراتها. وهي أحزاب هشة لا تملك أية فرصة للاستيلاء على السلطة ولو بالتعاون مع غيرها. والنوع الثاني نظام الحزب الاستيعابي الذي يسعى فيه الحزب الحاكم إلى أن يستوعب في تشكيلاتـه كل المعـارضة السياسية. أما الصنف الثالث فيشار إليه باسم الحزب الواحد الإيديولوجي، والبلاد الشيوعية هي نماذج رئيسية له[1].

أما الأحزاب الوطنية المحلية فقد ظلت ضيقة الأفق وضيقة

---

(1) الأحزاب السياسية في العالم الثالث / د. أسامة الغزالي حرب. سلسلة عالم المعرفة العدد أيلول 1987.

الرؤية حيث أنها لم تكن تعي مسألة الأمة العربية الإسلامية وقوميتها ولم تكن تعي أهمية الوحدة العربية ونتائج إحداثها على كافة المستويات. الفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

ولما كان الصراع هو طبيعة العلاقة التي تحكم الأحزاب ببعضها فإن وصول أحدها إلى السلطة ينفي تماماً دور الأحزاب الأخرى بل ويقهرها وهذا ما حدث في أقطار الوطن العربي.

فالحزب عندما يصل إلى السلطة يطرح فكره وأسلوب سياسته على كافة المستويات الجماهيرية. وتأخذ قيادته جماعية كانت أو فردية بتطبيق منهجه دون رضى الآخرين. ويأخذ بقمع الأحزاب الأخرى والمخالفين لخطّه حتى يترسخ في السلطة ويتحلل من كافة التزاماته التي طرحها قبل أن يصل إلى السلطة. ويلاحظ أن هذه الأحزاب بابتعادها عن المنهج الإسلامي وابتعادها عن رفض الإسلام للحزبية قد كرست الفكر الوجودي المعتمد على الفلسفة الوضعية. وهذا يعني أنها تتشابه مع الأحزاب الشيوعية في طرحها الفلسفي وتختلف عنها أن الشيوعية استمدت أفكارها من نظرية ماركسية جاهزة في أسسها بينما هذه الأحزاب ليس لها فكر إنما هي تجرب عدة أفكار من خلال تجاربها في السلطة وممارساتها وهي تحكم (الحزب يقوم أصلاً ممثلاً للشعب ثم تصبح قيادة الحزب ممثلة لأعضاء الحزب ثم يصبح رئيس الحزب ممثلاً لقيادة الحزب ويتضح أن اللعبة الحزبية لعبة

هزلية خادعة تقوم على شكل صوري للديمقراطية ومحتوى أناني سلطوي أساسه المناورات والمغالطات واللعب السياسي. ذلك ما يؤكد أن الحزبية أداة للديكتاتورية ولكن عصرية. إن الحزبية ديكتاتورية صريحة وليس مقنّعة إلا أن العالم لم يتجاوزها بعد فهي حقاً ديكتاتورية العصر الحديث)[1].

وتلجأ الأحزاب إلى العنف والإرهاب السياسي في حال وصولها إلى السلطة، وتقف ضد معارضيها موقفاً عدائياً يصل أحياناً حدّ التصفيات الجسدية والملاحقة والزج في السجون ولأن الحزب تعبير عن طبقة ذات مصالح مشتركة فإن الحزب يصبح تعبيراً عن ديكتاتورية هذه الطبقة ولا تتورع هذه الطبقة في عمل أي شيء لتقوية سلطتها وطحن الأحزاب الأخرى والأفراد المعارضين لها. وفي هذه الحالة يصبح الحزب والدولة شيئاً واحداً. الدولة أداة لتنفيذ أهداف الحزب وممارساته، والحزب غاية من غايات الدولة. أو بمعنى آخر تُكرِّس الدولة بجميع قطاعاتها وجميع أهدافها لمصالح الحزب. أي لمصالح طبقة واحدة هي طبقة الحزبيين الذين لا يمثلون إلا أقلية من المجتمع والجماهير وقد أدت سياسة هذه الأحزاب إلى جعل الفئات الأخرى في المجتمع تتصادم مع السلطة الحزبية الحاكمة تصادماً مسلحاً دموياً مما ينتج عنه تدمير للبنية السكانية ولمقدرات الأمة بجميع

---

(١) الكتاب الأخضر، الفصل الأول، ص 21، حل مشكلة الديمقراطية.

نواحي حياتها، العمرانية والاجتماعية وغيرهـا. وحتى يتسنى للحزب أن يحكم بشكل قوي يلجأ إلى استخدام الجيش وتوظيفه للحفاظ على سلطة الحزب إضافة إلى أنه يلجأ لأجهزة الأمن والمخابرات الداخلية لمراقبة أي تحرك وقمعه من قبل الفئات الأخرى أو الأفراد الذين يحاولون الاحتجاج على سياسة الحزب والدولة.

ويتضح أن الأحزاب في العـالم العربي لا تلتزم القيـادة الجماعية فيها. فأكثر هذه الأحزاب بدأت تنظيراتها على أساس إلغاء الرأي الفردي المتحكم بالحزب. وقد نادت بالقيادة الجماعية في مرحلة ضعفها أو في المرحلة التي لم تكن فيها تسيطر على السلطة أو الدولة لكنها ما إن تصل إلى السلطة حتى يبرز حكم الفرد فيها. ويصبح صوت القيادة الجماعية هامشياً. فما يقوله رئيس الحزب يصبح منزّلاً لا بد من تنفيذه. وفي حال كهذه تكمن أخطار الفردية ومطباتها لا سيما إذا كانت قرارات الحاكم تتعلق بقضايا مصيرية كتحديد السياسة الخارجية مثلاً وتحديد الموقف من التوسع الصهيوني في الأرض العربية. وما حدث في مصر إبان توقيع اتفاقية كامب ديفيد خير دليـل على ذلـك. فالحزب الوطني الديمقراطي الذي توصل عن طريق السادات إلى السلطة صار محكوماً لنظرة فرد. وقد أقدم السادات على الاتفاق مع الكيان الصهيوني ووقع قادة الحزب على الاتفاقية دون أي نقاش لمخاطرها ومن شأن اتخاذ القرار الفردي إلغاء دور الحزب

إلغاء كلياً إلا إذا كان يسلّم لرئيسه تسليماً أعمى دون أية معارضة. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التفرّد باتخاذ القرارات المصيرية من شأنه إلغاء دور الأمة إلغاء كلياً في رأيها بل إن السلطة تلجأ إلى العنف والإرهاب إذا ما وجدت أن الجماهير تعارضها وتحتج عليها.

ومن طبيعة تفرّد الحزب الحاكم في الوطن العربي تكريس زعيمه رئيساً للدولة ولا يخضع هذا الرئيس لمجلس أعلى يحاسبه إذا ما أخطأ. وقد رأينا في الاتحاد السوفياتي أن اللجنة المركزية للحزب تستطيع أن تؤثر في بقاء الرئيس أو عدم بقائه لكن الأمر يختلف تماماً في الوطن العربي. فإذا ما كرس زعيم الحزب رئيساً فإنه يلجأ إلى فرض سيطرته على الحزب وعلى الدولة مستعيناً بأجهزة أمنية ومخابرات وقوات عسكرية مختصة فقط لحماية الرئيس. وهنا يلغى دور الحزب ودور قيادته الجماعية. وفي هذا الحال يقع الحكم تحت وطأة حكم فردي ديكتاتوري قد لا يتغير إلا بتغيير رئيس الحزب الذي هو رئيس الدولة أو في حالة وفاته.

إن الإسلام يرفض الحزبية لأن فيها قهراً للجماهير، وفيها تكريس حكم الفرد الديكتاتوري يرفضها لأن الأمر شورى بين المسلمين. ولا طاعة للمخلوق في معصية الخالق. وطالما أن الحزبية الشيوعية والأخرى القومية الاشتراكية ترفض منهج الإسلام فإنها تقع تحت وطأة التنظير الوضعي الذي يتعرض دوماً للخطأ. وهذا التنظير لن يكون إسلامياً طالما أن المنظرون

أنفسهم ليسوا مسلمين وطالما أن نظريات هذه الأحزاب لا تقوم على أساسٍ من الإسلام. بل إن بعضها يعتبر الإسلام عقبة في تحقيق مآربها وغاياتها الوضعية الذاتية.

إن الإسلام لا يدع مجالاً للحاكم أن يتفرد في رأيه وفي مصير أمته ولا يدع الناس يعيشون تحت وطأة تفكير بشر مثلهم. لقد وضع الإسلام مقياساً للرجوع إلى صيغة الحكم. هذا المقياس هو القرآن الكريم، والسنة الشريفة. والقياس والاجتهاد والإجماع ولما كان حكم الحزب الواحد يؤدي إلى السيطرة على كافة شؤون الدولة فإن الحزبيين الذين ينتسبون له هم الذين يستأثرون بوظائف الدولة بشكل واسع جداً رغم أن بقية الجماهير تفرز طاقات علمية واجتماعية وعسكرية هي أجدر في وضعها في المكان المناسب الذي تستحقه والذي تستحوذ عليه عناصر الحزب.

إن الأحزاب الحاكمة تلجأ إلى تقوية مراكز عناصرها وتغير أنظمة الدولة وقوانينها ولا سيما تلك التي تخص الشؤون الإدارية. فيصبح مقياس نفع الفرد أو ضرره كونه حزبياً أو غير حزبي. وتأتي في المقام الثاني مؤهلاته العلمية والاجتماعية وهذا ما ينطبق على الوظائف المدنية والأخرى العسكرية، وهنا يكمن خطر التنمية الخاطئة أو مبدأ التنمية من أساسه حيث تستبعد العناصر غير الحزبية أو أنها توضع في أمكنة لا تناسبها. وعلى

سبيل المثال نرى أن بعض الطلبة الذين درسوا في الخارج وحصلوا على شهادات في الفيزياء الذرية أو غيرها يعودون إلى بلادهم ليوضعوا في وظائف إدارية أو تعليمية لا تمت بصلة إلى ما تعلموه. بينما يوضع الحزبيون رغم أنهم أقل خبرة وأقل علماً في المراكز الحساسة والمؤثرة في حياة الدولة إن كان على المستوى العلمي أو الاجتماعي أو الاقتصادي. ولسبب من الأسباب يطرد عميد كلية الطب مثلاً كونه ليس حزبياً ويعين مكانه أحد الطلاب الذين تخرجوا حديثاً من كلية الطب بسبب كونه حزبياً وموالياً للسلطة.

وفي مجال التعليم يتدفق الشبان الحزبيون على المدارس دون أي اعتبار لأسلوبهم ودون أي اعتبار لمقدرتهم على التعليم، فيخوضون تجربة العلم والتعليم وما أن تمضي بضع سنوات حتى يشعر الناس جميعاً بفشل أطفالهم وفشل علمهم. وكم من الطلاب من يصل إلى صف السادس الابتدائي ولا يستطيع أن يكتب اسمه إلا بصعوبة. وكل ذلك بسبب تفضيل الشبان الموالين للحزب على غيرهم من أبناء الشعب. إضافة لذلك فإن الشبان غير الحزبيين يُحرمون كثيراً من المنح الدراسية ولو كانوا في الصف الأول والمرتبة الأولى بمستواهم العلمي.

وما يطبق في الحياة العلمية يطبق أيضاً في الشؤون المالية والإدارية. وفي النتيجة تصبح أجهزة الدولة في تضخم وظيفي

لأنها وحزبها مكرسان لتوظيف عناصرهما الأساسية والموالية. وهذا التضخم الوظيفي يؤدي إلى تكريس البيرقراطية والفراغ العملي. فالكل محكومون بلوائح منزّلة من السلطة العليا، ولا يستطيعون الإبداع أو تخطي اللوائح لأنها ممنوعة إلا على من أصدر قراراً بها وهي السلطة العليا في الحزب.

ولعل دور سلطة الحزب في تغيير بنية الجيش هو دور كبير وخطير للغاية. فالجيش في أي بلد عربي يجب أن يكون جيشاً وطنياً قوياً يُربى على الأخلاق الإسلامية التي تدفعه إلى التضحية بالروح والنفس من أجل تحرير الأراضي المحتلة ولا سيما فلسطين. لكن الذي يحدث بالنسبة لمعظم الأنظمة الحزبية أن الجيش يكرّس لحماية الحزب والنظام الحزبي. جميع قادته يجب أن يكونوا حزبيين وجميع عناصره المتطوعين يجب أن يكونوا حزبيين. فيحرم منه من لم يكن حزبياً. وتضيع فرص كثيرة أمام بعض الشباب الذين يرغبون الدخول إلى الجيش بدافع وطني مخلص.

ولعل تربية الجيش تتبع تربية فكر الحزبية التي تقوم على تمجيد الحزب دون سواه وتمجيد رئيس الحزب. ولا يعطى أي اهتمام للفكر الإسلامي وقادته الذين سطروا أروع صفحات التاريخ في مجال العسكرية والقيادة الحربية. ولا بد أن تصل هذه التربية بالعسكري إلى قناعة بأن أي نظام حزبي فردي لا يهمه كثيراً قضايا الأمة إنما الذي يهمه الحفاظ على النظام القائم والسلطة الحزبية القائمة.

لننظر إلى واقع الجيش العربي في (مصر) بعد توقيع معاهدات (كامب ديفيد). لقد سُرّح منه خيرة الضباط الكبار والصغار وأبعدت عنه العناصر الوطنية وغيّرت عقيدة تسليحه. وصار أكثر طواعية للحزب الحاكم والسلطة الحاكمة فلم يعد الكيان الصهيوني هو العدو اللدود للأمة وبات الجيش مكرساً فقط لحماية النظام من أي غضبة جماهيرية أو أية محاولة للتغيير.

ومتى كان الجيش الإسلامي يكرسه الخليفة لقمع الشعب المسلم والجماهير المسلمة؟ متى كان الجيش يترك الفتوحات وينقض على خصوم الدولة من الجماهير ليسحقهم ويُذلهم؟ لننظر إلى واقع الأمر زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر وعمر. إن الإسلام يرفض الحزبية لأنها تضع المصلحة الخاصة فوق كل مصلحة. تضع مصلحة أفراد الحزب فوق مصالح الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية في التطور الحضاري والحفاظ على وحدة الأمة والتصدي للأعداء الخارجيين الذين يحاولون الاستعلاء والاحتلال والاغتصاب.

لقد كرست الجيوش في الأنظمة الحزبية لتحقيق أمجاد فردية وطموحات خاصة لقيادة الحزب ولفردية الحزب ولم تكرس للقضايا القومية الكبرى. ولعل فشلها في التصدي للعدو الصهيوني هو خير دليل على ذلك. فمنذ عام 1948 والأقطار العربية تعد الجيوش وتشتري السلاح وتكدسه حتى أكله الصدأ.

ولم تستطع الأنظمة تحقيق مطمح واحد في التحرير أو إعادة الأرض المغتصبة إلى أهلها وهذا دليل على أن الجيش الذي يتمثل عقيدة الإسلام هو وحده القادر على خوض المعارك ضد العدو الصهيوني والأمريكي الاستعماري والانتصار، لأنه بالعقيدة الإسلامية يؤمن بالشهادة إيماناً راسخاً، فلا طمع في الدنيا ولا طمع بمغرياتها. أما إذا خاض الحروب وهو بلا عقيدة أو بعقيدة وضعية فإنه لا محالة خاسر. لأنه أساساً لم يعرف التربية الصحيحة التي تؤهله ليكون عنصراً فعالاً في التحرير. لقد تربى أساساً ليكون حامياً للسلطة من خصومها الواقعيين والوهميين الذين تخيلتهم السلطة أعداءً حقيقيين لها. وحين لم تجد بقية العناصر الجماهيرية أي دور لها خارج نطاق الحزب السلطوي الحاكم راحت تدخل تحت ضغط ظروف المعيشة تلك الأحزاب دون أية قناعة بالحزبية وبفكر الأحزاب جميعها. وهذا يعني استلاب الناس حرية التفكير والتعبير وحرية الحياة بكرامة.

ولما كانت أبواب الحزبية مفتوحة لجميع الناس ضمن شروط يضعها الحزب نفسه فقد استطاعت بعض الفئات الانتهازية وبعض العناصر البرجوازية الدخول في تلك الأحزاب، حيث وجدت فيها ملاذاً وممارساً لمصالحها التجارية والاقتصادية التي ترتبط بالتفكير الرأسمالي. ومن أجل حماية مصالحها تمركزت داخل صفوف هذه الأحزاب مما جعلها تخرج عن نطاق القيود التي من المفترض أن تحد من الثراء الطبقي لفئة معينة من الناس.

وبطبيعة الحال فإن التجّار وكبار الرأسماليين لا تربطهم بمصالح الشعب أية رابطة. إنما الذي يربطهم بواقعهم هو مقياس تجاري مالي. وتربطهم بالعناصر القيادية الحزبية ارتباطات مالية قوية حيث يشكلون سوياً طبقة مستأثرة بالحكم ومستأثرة بالاقتصاد والتجارة ورأس المال. وطالما أن الهدف الأساسي هو الوجود في السلطة الحزبية فلا موجب للاهتمام بالجماهير.

وباعتبار أن المصلحة الواحدة تربط هذه الفئة من المستغلين بالفئة الحزبية السلطوية المستغلة فإن قدرات الدولة المادية والاقتصادية تتمركز في أيديها. ولا بد في هذه الحال من الاستئثار بالمادة المالية. فالحزبية تحمي عناصرها من المنافسة التجارية والاقتصادية ويترتب على ذلك ثراء هذه الفئة وامتلاكها لكل الوسائل السلطوية التجارية وغيرها. وتقع هذه الفئة تحت وطأة سلطان المال مما يحدو بها للاشتراك بعمليات تجارية مشبوهة. كشراء كمّيات من اللحوم الفاسدة وبيعها في السوق بأسعار تقل عما هو عليه سوقها. وقد حدث مثل ذلك في مصر وفي بلاد أخرى حيث يقوم بعض المرتبطين الرأسماليين بالسلطة بشراء صفقات تجارية كبيرة من الدجاج الفاسد أو اللحوم ومن ثم توزيعها في السوق. وهذا ما سيؤدي إلى وقوع أبناء الشعب فريسة للتسمّم والمرض بسبب ذلك.

ويسهل الحزب الحاكم تلك العمليات التجارية بأسلوب أو

بآخر. وطالما أن الفردية الحزبية تتحكم بكل شيء في الدولة فإن المستفيدين من وجودهم في السلطة أو الحزب يقومون بأعمال تجارية غير مراقبة ولا تخضع غالباً للضرائب لأنها تدخل الدولة بأساليب ملتوية وغير شرعية، وهذا ما يحدث في تجارة السيارات والأدوات الكهربائية وغيرها.

إن السلطة الحزبية الفردية تقدم لأتباعها كافة التسهيلات لتقوية نفوذهم المالي والتجاري. فالامتيازات لهم وحدهم. والقصور الفخمة لهم وحدهم ووسائط النقل ملك لهم وحدهم. وتعليم أبنائهم في أقوى الجامعات العالمية ملك لهم وحدهم. أما الجماهير فهي في معزل عن كل ذلك.

إن الطبقة الحزبية الحاكمة لا يمكن أن تكون قوية إلا عن طريقين، طريق القوة المسلحة وأداتها الجيش وأجهزة الأمن، وطريق المال الذي من خلاله يجعلون حولهم أتباعاً باعوا ضمائرهم وليس من هم لهم سوى جمع الثروات وتكديسها في البنوك الخارجية.

إن كل ذلك يخالف ويناقض المنهج الإسلامي مخالفة قوية وتناقضاً كبيراً. ولعل التاريخ العربي منحنا دروساً في ذلك. فما كانت لتقوم النزاعات أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه وأيام الأمويين لولا استئثار بعض الفئات بالمال دون الفئات الأخرى. إن المنهج الإسلامي يقوم على تساوي الناس في الحقوق

والواجبات. فهم كأسنان المشط لا يعلو أحد على غيره ولا ينتقص حق واحد مهما كان لونه ومهما كانت قبيلته ومهما كان جنسه. المسلمون متساوون أمام الله ومتساوون أمام الشرع والحاكم فلا امتيازات لفئة دون فئة ولا استغلال لفئة على حساب فئة. والناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار فأين هذا من المناهج الحزبية السلطوية التي تحرم أفراد الشعب من مكونات الحياة الأساسية وتعطي الحرية المطلقة لعناصرها ومؤيديها يعيشون كما يعيش ملوكٌ وسلاطين وأمراء.

ولما كانت الحزبية تقوم على الوضعية والعلمانية وفصل الدين عن الدولة فإنها غير ملزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية بكافة جوانبها فهي في حل من ردع الظلم والظالمين وفي حل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الناس أحرار في عباداتهم على ألّا يقربوا السياسة. وكأن الإسلام فقط عبادات محصورة في الصلاة والصوم والأمور المتعلقة بالروحانيات وليس في الدنيويات. وكأن الإسلام دين بلا دنيا لا يصلح لسياسة أو فكر أو حضارة أو علوم!!.

وطالما سار نهج الأحزاب العلمانية على هذا المنهج فإن فساد الأخلاق في المجتمع يعم وينخر بين الأفراد والجماعات. تصبح المرأة في حلٍ من الاحتشام والسير على سلوك الأخلاق الإسلامية. والحزبية العلمانية تعطيها حرية شخصية تصل حد

التمرد على زوجها وعلى أهلها وعلى مجتمعها. وفي مثل هذه الأجواء تنتشر دور اللهو كالسينما والملاهي الليلية والمسارح المخصصة لحفلات الرقص الخليعة والإباحية. وقانون الأحزاب السلطوية يسمح بكل شيء إلا بتعاطي السياسة، فللمرء أن يلهو ويدمن الخمر ويزني، وللمرأة كذلك. فلا رادع من الحاكم ولا نهي عن المنكر من قبل السلطة.

ولعل استئثار عناصر الحزب بمقدرات الدولة دفع الكثيرين من أبناء الشعب الآخرين. يفتقدون إلى لقمة العيش والعمل وهذا ما دفع ببعضهم لارتكاب جرائم السرقة والقتل للحصول على الأموال التي تساعدهم على استمرار بقائهم على وجه الأرض. ومن الطبيعي أن الاستمرار في استمراء الجريمة يؤدي إلى فساد المجتمع والرعب الدائم المسيطر على الناس، وحين يُنفذ بهؤلاء الجزاء المقابل فإنه يكون قاسياً قد يصل حد الإعدام بينما يستمر الحزبيون بالسرقة المنظمة والمخططة دون أي رادع من ضمير أو محاكمة أو مراقبة من قبل السلطة العليا في الدولة الحزبية.

وقد أدى التنافر بين السلطة الحزبية والجو الإسلامي الشعبي إلى تضييق الخناق على المسلمين فالمساجد لم تعد تُفتح إلا وقت الصلاة وتلجأ كثير من الدول التي تتحكم فيها الأحزاب إلى مراقبة المسلمين خوفاً من تحركهم ضد الظلم والقهر والاستلاب.

فعلى سبيل المثال حُول كثير من المساجد إلى معاصر للخمر ومعامل لصناعات أخرى محرّمة وهذا ما حدث فعلاً في أكثر الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي وفي بخارى ذاتها حوِّل أكبر مسجد إلى متحف وذلك بعد الثورة الماركسية مباشرة عام 1917. ولما حاول المسلمون التحرك من أجل تحقيق بعض المطالب قام الجيش السوفياتي بقمعهم وقتل أفرادهم في المدن والقرى وما حدث في أذربيجان وطاجكستان هو خير دليل على قمع الحزبية السلطوية للمسلمين ولم يمضِ على ذلك وقت طويل. فقد حدث ما حدث في ظل حكم غورباتشوف الشيوعي وفي ظل حكم حزبه الشيوعي السوفياتي. ويكرس الإعلام الحزبي بشكل عام كل ما هو غير إسلامي. فالصحافة هي مرآة لأفكار الحزب والقيادة الفردية ولا صوت للجماهير المسلمة فيها. بل إن السلطة الحزبية تفتح المجال لأشد الناس عداوة للإسلام في صحفها وفي فترات سابقة وبين الحين والآخر كانت تشن الصحافة الحزبية في كثير من البلدان حملات إعلامية ضد هذا الإسلام والمسلمين. وفي الأقطار العربية بشكل عام وباستثناءات قليلة ترى الصحافة تهتم بقشور الثقافة وبالأدب الرخيص وإن لم تفعل فإنها تُكرس للحديث عن الأدباء والمفكرين الوضعيين الغربيين. وحين تتناول التراث الإسلامي فإنها تتحدث عن هوامشه وتُبعد قدر ما تستطيع جواهره. فكم من العظماء أغفلوا وكم من كتبهم العظيمة منع تداولها ونشرها. كل ذلك بسبب

العداء للإسلام وللفكر الإسلامي الواعي.

وتقوم الوسائل الإعلامية الحزبية الأخرى كالإذاعة المرئية والمذياع بتغطية برامج كثيرة تتركز على الفنون والرياضة وما إلى ذلك من برامج أخرى تفقد المواطن القدرة على التفكير بقضاياه وقضايا أمته الأساسية ومشاكله الاجتماعية الكثيرة كتأمين المواد الغذائية الأساسية لأسرته.

وإضافة لذلك فإن أجهزة الإذاعة المرئية وهي الأكثر تأثيراً في سلوك الشبان والشابات تركز برامجها الفنيّة على الرقص والأفلام والمسلسلات التي تُفقد فيها كل المثل الإنسانية الإسلامية.

عداك عن الدعايات التي تتلاحق لتتحدث عن حفلة راقصة في أحد الفنادق الأوروبية أو الأمريكية، والتي يتخللها شرب المسكرات والمحرمات والممارسات الشاذة من قبل الرجال والنساء.

وفي المناسبات الغربية كعيد الميلاد أو عيد رأس السنة تتكاتف جميع وسائل الإعلام بالتركيز على الأعياد وما سيقام فيها من حفلات إباحية لا أخلاقية. كل ذلك بسبب فصل الدين عن الدولة الذي اعتمدته بعض الأنظمة الحزبية السلطوية في العالم العربي والإسلامي.

الشعارات القومية وفشل الأحزاب في تحقيقها:

من المعروف أن الأحزاب في الوطن العربي جميعها تأتي رداً على وضعٍ معين لا يتمشى مع خطها الفكري أو الاجتماعي أو الاقتصادي. ولما كانت الأمة العربية مستهدفة من قبل الاستعمار الغربي والصهيوني فإن الأحزاب رفعت شعارات قومية واتهمت خصومها بالتقصير تجاهها. وأكثر القضايا التي طرحت كشعارات يجب حلها. القضية الفلسطينية وقضية الوحدة العربية وقضية التنمية والتطور.

لقد رفعت الأحزاب شعار أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للعرب ويجب تكريس الجهود العربية جميعها في خدمة هذه القضية.

والذي حدث أن القضية الفلسطينية ظلت تتراجع منذ عام 1948 وحتى الآن على المستوى الحزبي العربي بشكل خاص وعلى المستوى العربي الإسلامي بشكل عام. فماذا حُقق على مستوى القضية؟ وكيف كان الشعار؟ وما هو مدى تحقيق حل هذه القضية سلباً أو إيجاباً؟

في عام 1948 سقطت فلسطين في أيدي اليهود ولم يتمكن العرب ولا أحزابهم التي كانت موجودة آنذاك من الرد المناسب على العدو الصهيوني. وظلت تراوح في مكانها حتى عام 1956 حين قامت الأمبريالية الفرنسية والبريطانية والكيان الصهيوني

بالعدوان مجدداً على الأمة العربية، واحتلت سيناء وقطاع غزة وأثبتت الأحزاب العربية فشلها مرة أخرى في توحيد طاقات الأمة لمساعدة مصر اللهم إلا بضع مساعدات مالية وأخرى عسكرية رمزية وأخرى احتجاجية.

وما أن جاء عام 1967 حتى وقعت النكسة واحتلت سيناء مرة أخرى ومعها غزة والضفة بما فيها القدس.

وبات واضحاً أن القوى الحزبية العربية عجزت عن رص الصفوف وخلق المناخ الوحدوي في الجبهة الداخلية. عجزت عن خلق الثقة بينها وبين الجماهير. ولم تستطع القيادات الحزبية أن تحول القواعد الحزبية إلى ممارسة نضالية فعلية. لقد كان يتبين أن هذه القيادات الحزبية تعاني من نقص خطير هو افتقارها إلى الثقة بقواعد حزبها وعناصره. وبحكم افتقارها لهذه الثقة فقد عجزت عن تحقيق التطبيق الديمقراطي الشعبي على كافة المستويات، ومن هنا فإن عجز هذه الحزبية عن خلق شعب متحفز للصراع مع العدو، أدى إلى انتكاسات متلاحقة على المستوى القومي وباتت قضية فلسطين شعاراً مكتوباً على الجدران وعلى ورق المؤتمرات والاجتماعات الحزبية الكبيرة والصغيرة. وما زالت القضية الفلسطينية تعاني الكثير من جراء العقلية الحزبية القاصرة عن التحرير ومعاداة الكيان الصهيوني والاستعمار الأمريكي والبريطاني وغيرهما.

وتعيش الأحزاب في هذه السنوات حالة العمى عن استرشاد الطريق الثوري لأنها أساساً تفتقر إلى الخط الاستراتيجي لتعرف أين تقف وتعرف من هم الأصدقاء ومن هم الأعداء. وبات واضحاً أن العقلية الحزبية بحكم قصورها قد ورطت القطر الذي تحكمه في حالة من اليأس الجماهيري، إضافة للارتماء في أحضان الاستعمار الأمريكي وتهميش القضية الفلسطينية ووضعها على الرف. وبدل أن يقاوم التواجد الصهيوني الأمريكي في المنطقة قامت بعض الأنظمة الحزبية بتسهيل الهجرة اليهودية السوفياتية عبر أراضي العرب إلى فلسطين المحتلة. والإسلام الذي يدرك كيف يميز بين الأصدقاء والأعداء يقف واضحاً من الصراع اليهودي الإسلامي والصراع مع الغرب الصليبي. (وكل من يساند أمريكا هو مشرك بالله) وهذه حقيقة لا غبار عليها. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ونحن في خضم صراع مع الوجود الاستعماري الأمريكي البريطاني الفرنسي هو أين تقف الأنظمة العربية المساندة لأمريكا ضد الشعب العربي؟ هل بقي فيها شيء من الإسلام؟.

أما على مستوى الشعار الثاني الذي طرحته الأنظمة الحزبية فهو شعار الوحدة. فماذا يمكن أن نقول عن هذا الشعار وعن الاتجاه العملي لتحقيقه.

وقبل أن نخوض في غمار مناقشة هذا الشعار لا بد أن نؤكد

أن شعار الوحدة شعار مستحدث. فلم يعرف التاريخ الإسلامي دويلات في عصوره الماضية لا سيما منذ القرن الأول لوفاة الرسول ﷺ وحتى القرن الرابع. لم يعرف المسلمون دويلات لها حدود وجوازات سفر حتى يُرفع شعار الوحدة. إن شعار الوحدة مسألة بديهية لدى الإسلام والمسلمين وكل من يرفض الوحدة أو يحاول أن يزرع الفرقة فهو خائن لله وللإسلام ويستحق القتل.

الوحدة تأتي رداً على التفرقة والتجزئة.

والتجزئة صنعها الاستعمار وأعوانه منذ اتفاقية سايكس بيكو.

والأحزاب التي رفعت شعار الوحدة قيل إنها جاءت رداً على التجزئة.

فهل استطاعت العقلية الحزبية أن تقضي على التجزئة؟

هل استطاعت الأحزاب العربية تحقيق شعار الوحدة؟

هل تستطيع الحزبية أن تتخلى عن مصالحها ومكاسبها الذاتية في سبيل وحدة الشعب العربي الممزق؟

هل تستطيع العقلية الحزبية الفردية أن تتخلى عن كرسيّ حكمها في سبيل وحدة الأمة؟

وللرد على هذه التساؤلات نقول:

إن الوحدة العربية مطلب جماهيري ولكنها ليست وحدة

زعماء أو حكّام إنها وحدة جماهير، فإذا ما تحقق شيء منها أو شكل من أشكالها فالواضح أنه لا يكون وحدة جماهير بل وحدة سلطات وحكام.

والواقع العربي يرشدنا أن الأحزاب السياسية السلطوية التي تتحكم بمصير أبناء الشعب العربي تراجعت عن تحقيق هذا الشعار لأنه يتعارض مع إقليميتها ويتعارض مع مصالحها. فراحت تنادي بشعارات التضامن العربي والاتفاق العربي، وأضحت الجامعة العربية التي أول من شكلها الاستعمار هي المطلب الأخير والأهم لهذه الحزبيات وقد جاءت أشكال جديدة من التقارب بين بعض الأقطار بديلاً عن الوحدة لأنها مستحيلة التحقيق طالما أن كل حاكم يستأثر بالحكم ولا يمكن أن يتنازل عن كرسيه وطالما أن الجماهير بعيدة أو مستبعدة عن المشاركة الفعّالة في تحقيق الوحدة ويستنتج المرء أنه لا يمكن تحقيق الوحدة العربية طالما تسيطر على الأقطار العربية عقليات إقليمية رجعية، وعقليات حزبية تعصبية.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الأشكال التي اصطنعت كبدائل عن الوحدة لم تقم على أساس خدمة الجماهير العريضة ولا خدمة المصالح القومية والإسلامية. وهي أساساً تقاربٌ بين أنظمة غير متجانسة لا في الفكر ولا في النظام ولا حتى في التعامل مع الأعداء والأصدقاء.

بل بات من الواضح أن هذه الأشكال البديلة هزيلة هشة إذا ما تعرضت لهزة واحدة تفقد مكوناتها. ولعل أزمة الخليج خير دليل على ذلك. فأين مجلس التعاون العربي بين مصر والعراق واليمن والأردن؟. أين بقية الأشكال التي تحاول أن تخرج بصيغة واحدة حول الأزمة؟

وقد رفعت بعض الأحزاب شعارات كثيرة كشعار (بترول العرب للعرب) ونتيجة لفقدان هذه الأحزاب مواقف صلبة تميَّع هذا الشعار وصار من يطالب به كأنه يهذي أو يصرخ في واد والناس في واد. ورغم ما حدث من احتلال القوات الأمريكية وحلفائها لمنطقة الخليج ومنابع النفط فإن هذا الشعار ظل ميّتاً. لا تطالب به إلا بعض الأنظمة الثورية التي لا تقوم على حكم الحزبية وأفكار الحزبية.

أما على مستوى تحقيق التنمية. فقد طرحت كافة الأحزاب في بداية تسلمها السلطة أنها ستقوم برفع مستوى التنمية وإزالة التخلف الذي عاشته الأمة قروناً طويلة في ظل الحكم العثماني وعشرات السنين في ظل الاستعمار الغربي الصليبي.

والتنمية ترتبط بالتحديث. وفي الأنظمة الحزبية يصبح العنف أحد ملامح التحلل السياسي المترتبة على التحديث. والتحديث نفسه يجد جذوره في انتشار الفقر وفي الطموحات المحبطة المرتبطة باتساع عمليات التعبئة الاجتماعية مثل التحضر

والتعلم والإعـلام وكذلـك في انعـدام المسـاواة التي تـرتبط بالتحديث.

وعملية التنمية في ظل هذه السلطات تجعـل الموظفـين العموميين ينحرفون عن القواعد المقبولة اجتماعياً بغرض تحقيق أغراض شخصية. باعتباره نتاجاً مرتبطاً بعمليات التحديث السريعة لأسباب كثيرة ومتنوعة مثل التحلل القيمي. وخلق مصادر جديدة للثراء والنفوذ.

وترتبط التنمية بالتحديث في المدينة والريف والواقع يشير إلى أن أكبر نسبة هجرة من الريف إلى المدينة تحدث في العالم العربي الذي تحكمه سلطات حزبية. ويرى المرء أن فشل التربية الريفية الجماهيرية أدى إلى نزوح عشرات الآلاف من الفلاحين إلى المدن لوجود وظائف إدارية ذات رواتب ضعيفة جداً رغم أن الأراضي الزراعية الواسعة إذا ما استُغلت فإنها تجعل الريـف محط أنظار أبناء المدن أنفسهم وإضافة لذلك فإن النزوح يعود سببه أيضاً إلى استحالة السلطات الحزبية لعناصرها واستقدامهم من الريف ليكونوا حماة للسلطة والدولة. وأكثر الذين تستقدمهم يوظفون في أجهزة الأمن والمخابرات. وهذه الأجهزة تنشر عناصرها في المصانع والدوائر الحكومية والمدارس وبقية المنشآت الحكومية العامة، ونتيجة للتضخم السكاني في المدن فقد لجأت الدول إلى توسيع رقعة المرافق فيها واستحداث كثير من المنشآت الخدمية

الاستهلاكية التي ليس من ورائها طائل بينما كثير من المصانع تتوقف ويُحد من إنتاجها بسبب عدم المقدرة على دعمها بالرصيد الحكومي الذي يذهب في التحسينات الشكلية للمدن.

ونتيجة لفقدان الثقة المتبادلة بين الجماهير وبين السلطات الحزبية يتجه كثير من العناصر إلى التخريب في مجال الزراعة والصناعة والاقتصاد بشكل عام. يصبح التخريب وكأنه عمل مضاد على سياسة الدولة التي يشعر الأفراد أنها تمتص دماءهم وقوتهم اليومي وإنتاجهم الزراعي.

وهذا ما يؤكد أن الأحزاب في أثناء المراحل الأولى للتنمية تتخبط في إيجاد الرؤى الصحيحة بحيث تكون أكثر اهتماماً بالتنشئة السياسية لأعضائها من اهتمامها بقضايا الجماهير الواسعة.

وقدرة الأحزاب الفردية على البقاء مرتبط بنوعية القيادات الحزبية القادرة على التحايل وإدارة الصراع السياسي وتخدير مسألة التنمية والتحديث. وفي عالمنا العربي تؤثر الأحزاب وجود عدد ـ ولو قليل ـ من القيادات الخبيثة والذكية على إدارة الصراع السياسي بفاعلية. ولا شك أن التجربة التي يتمتع بها القادة الحزبيون في التعامل مع الصراعات تعتبر مسألة ذات خطورة.

فذكريات الصراعات الماضية غالباً ما تؤثر على السلوك الحاضر. والأفراد الذين يشبون في نظام سياسي يموج بالانقلابات والاغتيالات والاعتقالات السياسية والحركات السرية لن يكونوا

مهيئين للتحرك في مناخ سياسي يؤكد على الحوار السلمي والعقلاني[1].

وطبيعة حكم الأحزاب وسيطرتها على الدولة تجعلها تحمّل مسؤولية فشلها في التنمية على عوامل خارجية تارة وعوامل جماهيرية تارة أخرى. حيث يركز إعلامها دوماً على وجود قوى مستغِلة وانتهازية تريد تدمير منجزات الشعب!!!.

بينما الحقيقة هي أن الذين يُفشِلون عملية التنمية هم الذين وضعوا أنفسهم في موقع القيادة، وراحوا يستأثرون بثروة البلاد لمصالحهم الشخصية نراهم يكدسون الأموال في البنوك الخارجية. ويندسون في حقول التجارة فيرفعون الأسعار أو يخفضونها. ويُغرقون السوق بسلع معينة ويمنعونها من سلع أخرى. ويتلاعبون بقوت الناس ومعيشتهم كلما يحلو لهم ويطيب.

الإسلام والأحزاب ذات التوجه الديني:

لا شك أن بداية الثلاثينات من هذا القرن شهدت توجهات وطنية وقومية ودينية لدى الكثيرين من الشباب. وقد ارتأى الشيوعيون أن الدين عامل تخلف في المجتمعات فرد عليهم

---

(1) الأحزاب السياسية في العالم الثالث. د. أسامة الغزالي حرب ص 185، سلسلة عالم المعرفة 1987.

المتدينون بأن عودة الروح العملية للإسلام لا بد أن تكون البديل للمجتمع العربي والإسلامي.

ومن هذا المنطلق ظهرت حركتان أو أكثر تتجه اتجاهاً إسلامياً دون التفكير بإنشاء حزب، أو دون التفكير بجعل التحرك في مواجهة الواقع من خلال الأحزاب لكن هذه الحركات لم تبق على حالها وسرعان ما تحولت إلى صيغٍ حزبية تنافس على السلطة وتصارع من أجل الوصول إليها.

وكانت أبرز حركة ظهرت في ذاك الوقت حركة الإخوان المسلمين. ومن ثم جاءت حركة حزب التحرير الإسلامي.

وباعتبار أن حزب التحرير الإسلامي هو الأضعف والأقل انتشاراً فإننا سنقتصر على بعض النواحي المتعلقة برؤيته الحزبية وأهم هذه النواحي موضوعة العهد المكي. أو الفترة المكية. يرى هذا الحزب أنه على المسلمين عدم التحرك في وجه الاستعمار والقوى الرجعية وعلى المسلمين التوقف عن الجهاد وتأجيله حتى قيام الدولة الإسلامية ووجود الخليفة الذي يعقد ألوية الجهاد. وهذه المرحلة تفرض على المسلمين الصبر وتربية الأجيال تربية إسلامية روحية واجتماعية. والتوقف عند هذا الحد.

فهل يتوافق هذا الطرح مع الرؤية الإسلامية الجهادية؟

الحقيقة أن طبيعة الأنظمة الحزبية الدينية التقليدية في عالمنا العربي خاصة هي طبيعة مزدوجة. فهي ترفع شعار الإسلام

كمنهج حياتي جهادي للمسلمين وفي الوقت نفسه تخلق بعض الأعذار عن ممارسة الجهاد عملياً وذلك بسبب ظروف كثيرة حسب ما يرون فمسألة الفترة المكية التي يطرحها حزب التحرير الإسلامي فُسرت على أنها لا تتوافق في هذا الزمن مع الجهاد ضد الاستعمار واليهود والرجعية المتحالفة مع الاستعمار والواقع أن الإسلام كمنهج حياتي متكامل لا يسمح للمسلم أن يقف مكتوف اليدين أمام هذا الواقع الاستعماري الخبيث. فالديار الإسلامية دوهمت واحتُلت الأرض وانتُهكت الأعراض والبلاد. وفي هذه الحال فإن الجهاد بشكل بديهي هو فرض على كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كان عمره. امرأة كان أو رجلاً. طفلاً كان أو شيخاً.

(نحن نعيش اليوم عهد الاحتلال والاستعمار. احتلال القدس. استعمار الوطن العربي والإسلامي بعد تجزئته وإلحاقه بالغرب وتكريس تبعيته له. إننا لا نعيش العهد المكي رغم غياب الخلافة ورغم أننا ملزمون بالإعداد والتربية المستمرة والصبر. ولكن أيضاً نحن ملزمون بالجهاد. قتال المستعمرين والحكام المرتدين. إننا لا نعيش مرحلة انقطع فيها تواصلنا الحضاري على يد الاستعمار وأعوانه. ونحن مطالبون بإعادة تواصلنا الحضاري واستئناف الحياة الإسلامية بمواجهة المستعمر وليس بالهروب من المواجهة إلى موضوعة العهد المكي)[1].

---

(1) د: فتحي إبراهيم الشقاقي. المنهج ص 79-80. دار الفكر الإسلامي 1989.

والتناقض الذي يقع فيه دعاة حزب التحرير هو اعتبارهم أن أنظمة مثل نظام جعفر النميري السابق ونظام باكستان والسعودية ودويلات الخليج هي أنظمة إسلامية منحرفة. وليست أنظمة ردة وكفر وجاهلية. وهذا يعني بالتالي أن رؤية حزب التحرير رؤية قاصرة وضعيفة إن لم تكن رؤية انحرافية عن منهج الإسلام وخطه الجهادي.

إن الإسلام يرفض أن يطلب المسلم من أعدائه العون والمساعدة على قتال أخيه المسلم. وهذا ما وقعت فيه تلك الأنظمة منذ نشأتها وحتى الآن. فماذا يقول حزب التحرير بشأن السعودية التي فتحت أرض المقدسات للغزو الأمريكي واليهودي والصليبي. هل نظام الحكم فيها نظام مسلم وإسلامي منحرف فقط أم أنه نظام ردة وكفر يجب محاربته؟

أما حزب الاخوان المسلمين فشأنه يختلف كثيراً كونه حركة دينية مناوئة للاستعمار وانتهى حزباً له رؤيته السياسية وله صراعاته من أجل السلطة في أكثر من بلد عربي وله مواقفه المعاصرة والمتناقضة حول كثير من قضايا المسلمين والعرب.

ومن هنا يمكن أن نقول إن هذا الحزب عاش مرحلتين مختلفتين من حياته. مرحلة الدعوة ومعاداة الاستعمار ولم يكن في وقتها حزباً سياسياً له طموحاته في قلب نظام الحكم. ومرحلة ثانية. عندما صار حزباً بكل ما تعني الكلمة من معنى وصارت له

ممارساته الواقعية في الصراع مع كثير من الاتجاهات. حتى وقع في ممارسات دموية راح ضحيتها شباب عرب ومسلمون من الحزب نفسه ومن الآخرين الذي رأى فيهم الحزب كفاراً خارجين على الإسلام.

وكان مرشد الجماعة (الاخوان المسلمين) (حسن البنا) يرفض الحزب والحزبية ويمقتها وقد اعتبر عناصر حزب الاخوان المسلمين ذلك ضعفاً في رؤية حسن البنا لطبيعة الصراع في مصر أيام النظام الملكي!

لكن (حزب الاخوان) الذي أنشأ ما يسمى (النظام الخاص) وهو الجناح العسكري في الحزب لم يقف عند حد شعاره الذي طرحه وهو (مواجهة المسؤوليات إزاء الإنجليز في الداخل والصهاينة في فلسطين). بل تورط في شبكة من الاغتيالات والتفجيرات التي أودت بحياة كثيرين من الناس. وبدا واضحاً أن النظام الخاص يحصر مهمته في ردع أعداء حزب الاخوان المسلمين في مصر من رجال التنظيمات والأحزاب الأخرى. بل وتعدى الأمر مصر ليصل خارجها، حيث أقدم النظام الخاص على الصراع مع أعدائه من العرب والمسلمين خارج مركزه في مصر.

وقد خلق حزب الاخوان كغيره من أحزاب العالم الثالث على شتى توجهاتها. حالة التمسّك بالفرد والفردية، وقد جعلوا

من حسن البنا مصدر إلهامهم. وبعدما اغتاله نظام الحكم الملكي في مصر. وجد الاخوان أنفسهم في حالة ضياع كامل. . وهذا من طبيعة الأنظمة الحزبية. والإسلام يركز على حكم الجماعة القيادية. حيث يفرز الشعب رجاله باستمرار حتى لا تقع الدولة أو يقع الشعب في مأزق التعلق بالفرد.

لنلاحظ أن المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ استطاعوا أن يتجاوزوا محنتهم وبسرعة، واستطاعوا بالتالي التصدي للمرتدين. صحيح أن النبي ﷺ قاد الأمة وشرح منهج إسلامها. ولكن الدين لم يكن دين شخص أو نبي إنما هو دين الله الذي يهيء له رب العالمين رجالاً يتتابعون ليحفظوا المسلمين والإسلام من التدمير أو الاختلاف أو الصراع.

لو كان الإسلام مرتبطاً بشخص محمد ﷺ لمات الإسلام فور وفاته فربط أي مشروع بشخص القائد أو الزعيم يُفشله مهما كانت قوته. وهذا ما حدث في حزب الإخوان المسلمين. وفي الحزب القومي السوري وبعض الأحزاب الأخرى في الوطن العربي.

ولما كان الشيخ حسن البنا نفسه يرفض أن يكون الأخوان المسلمون حزباً فقد كان يرى أن الإسلام لا يتوقف نجاحه على وجود شخص أو عدم وجوده. ولكن عناصر الحزب لم يفهموا هذه المسألة وخالفوا المنظور الذي رآه مرشدهم الأول.

ويقول البنا في ذلك (إن الإخوان ليسوا حزباً من الأحزاب وإن الإخوان ينكرون على الأحزاب حزبيتها) ولكن الواقع الذي عاشه الإخوان المسلمون فيما بعد هو واقع الحزبية وهم الآن في مصر يبحثون بحثاً جاداً عن كافة المخارج القانونية لكي يصبحوا حزباً معترفاً به من قبل السلطات المصرية.

وبعد ثورة مصر 1952 على الملك فاروق اتضح أن حزب الإخوان المسلمين لم يكن على وفاق معها لأسباب كثيرة. وبدا أن المنافع الشخصية سيطرت على بعض قياديي هذا الحزب.

ولما كان زعيم الحزب حسن الهضيبي قد تسلم قيادته بعد حسن البنا فقد ارتسمت الخطوط العامة لسياسة الحزب حيال الملك فاروق قبل الثورة بقليل وحيال الثورة نفسها. وهذه الخطوط بشكل عام تؤكد نوعاً من الارتباط بين الحزب وبين رجال الملك ففاروق نفسه كان يؤيد انتخاب الهضيبي مرشداً عاماً للحزب بعد حسن البنا ذلك لأن الهضيبي كان متزوجاً من شقيقة مراد حسن ناظر الخاصة الملكية كما كان على صلة وطيدة ببعض العائلات الثرية الكبيرة والاقطاعية المقربة من الملك إذ تربطه بها علاقات عائلية وشخصية.

ولما رأت الثورة المصرية عام 1952 أن تحديد الملكية الزراعية يجب أن لا تكون أكثر من 200 فدان للمزارع عارض الهضيبي ذلك وطلب أن تكون الملكية الزراعية 500 فدان. وهذا

يعني أن زعيم الحزب كان يعمل على مبدأ الدين للسياسة وليس السياسة للدين. وهذا أيضاً يؤكد أن علاقة مّا تربط فكر قياديي حزب الإخوان المسلمين بالإقطاع والبرجوازية المحليـة. وقد استغلوا كثيراً مواقف المسلمين الأوائل في رفضهم التمييز بين مسلمين فقراء وآخرين أثرياء متسلّطين.

غير أن الأمر الذي يستوقف الجميع وهو يتناول ظاهرة حزب الإخوان المسلمين ذلك النظام الخاص (الجناح العسكري للإخوان) فهذا النظام الذي كان يتزعمه شاب مغامر اسمه (عبد الرحمن السندي) وهو طالب في كلية الطب راح يتضخم مادياً وأدبياً على حساب سمعة ومكانة غيره من أعضاء الحزب وبالطبع فهذا داءُ الحزبية في العالم الثالث.

وقد قام هذا الجناح باغتيال أعضاء من الحزب كما فعل مع المهندس سيد فايز الذي حُملت إلى بيته علبة حلوى وما أن فتحها حتى انفجرت في وجهه ومات على الفور. وسيد فايز هو أحد قياديي النظام الخاص غير المتّفقين مع عبد الرحمن السندي. وقد حاول سيد فايز إقناع قيادة النظام الخاص باتباع المرشد العام ونبذ السندي فكانت نهايته القتل. وفي عام 1954. حاول النظام الخاص اغتيال عبد الناصر وقد أصابوه غير أنهم لم يفلحوا في اغتياله.

ومنذ عام 1970 تنفس الإخوان المسلمون الصعداء وراحوا

ينظمون أنفسهم من جديد وبعد وفاة الهضيبي تم انتخاب أو تعيين عمر التلمساني وهو سليل الوجه الثري عبد القادر باشا التلمساني الذي كان يمتلك أجود الأراضي في القليوبية وسبعة منازل في القاهرة عاش طفولة لم يعشها أكثر أبناء مصر الفقراء فهي حياة في (سراية) ضخمة فيها الجواري والعبيد.

وبعد التلمساني عُين محمد حامد أبو النصر مرشداً جديداً للإخوان المسلمين ورغم أنها أي الجماعة الحزبية للإخوان تتدخل في كثير من القضايا العربية والإسلامية إلا أنها تحاول إلى الآن الدخول في مجلس الشعب المصري لتنافس وتصارع الأحزاب الأخرى الموجودة على الساحة.

أما مواقف حزب الإخوان المسلمين من القضايا العربية والإسلامية فتتضح أكثر فأكثر في ثبات المبدأ. فهم مزاجيون ينتقلون من موقف إلى موقف وهذا ما تمليه عليهم رؤيتهم القاصرة. فعلى مستوى القضية الفلسطينية نجدهم قد توانوا عن مبدأ الجهاد ضد العدو الصهيوني وركزوا جل اهتمامهم على السياسات الداخلية لمصر وبعض البلدان العربية والإسلامية. أما عندما قامت الثورة الإيرانية فقد أيدوها وبعثوا بوفد عام لتهنئة الثورة. ولكنهم ما لبثوا أن شكلوا لجنة سميت (لجنة فتح إيران) وكان قصدها تحويل أهل الشيعة إلى السنة وكأن هذا الأمر قد صار من أولويات العمل الإسلامي على افتراض إمكانيته.

(ألم يكن من الأولى أن يشكل التنظيم الدولي للإخوان المسلمين بقيادته التي تفتقر للشرعية والأهلية لجنة لفتح القدس وتحرير الأقصى، لكنه القصور السياسي وسوء تقدير الموقف الذي يجعل صاحبه يتعامل مع الأوهام وكأنها حقيقة)[1].

والمراقب لمواقف الإخوان المسلمين المعاصرة من القضايا والعلاقات العربية والإسلامية والدولية، يلاحظ المرء أن هذا الحزب ارتمى قسم كبير منه في أحضان الدول العربية التقليدية الموالية للاستعمار الأمريكي والصليبي الغربي. فعلى سبيل المثال فإن حزب الإخوان المسلمين أيد السعودية في استدعاء قوات أجنبية إلى الأراضي المقدسة في نجد والحجاز ضد العراق. وقد أصدر مرشدهم العام أبو النصر بياناً في ذلك، وجاء بيانه متوافقاً مع سياسة السلطة في مصر التي تدعم وجود القوات الأمريكية في السعودية.

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية وهي الأخطر وهي المحك الذي أظهر جماعة حزب الإخوان وقصور رؤيتهم، فأحد قادتهم يقول بأن الإسلام لم يأت لحل قضية فلسطين! ويرفضون منهج الثورة المسلحة ضد العدو الصهيوني. وينتظرون إقامة الدولة الإسلامية في العالم الإسلامي لكي يتم تحرير فلسطين. ورغم

---

(1) عبد الله النفيسي. الإخوان المسلمون التجربة والخطأ. ص 94. نشرة غير دورية.

وجود حزب الإخوان منذ أواخر العشرينات فإنهم قد تخلفوا عن الكفاح المسلح ضد الصهيونية والاحتلال. . ويعيش حزب الإخوان حالة دائمة من المهادنة مع الأنظمة العربية ذات العلاقة الوطيدة بالاستعمار الغربي كالسعودية ومصر.

على أية حال فإن الإسلام كرؤية ومنهج يرفض التحزب الذي يجر على الأمة الصراع بين أفرادها. ويرفض الاغتيال الذي يقع على المسلمين ويرفض المهادنة مع أعداء الأمة من يهود وأمريكان وغربيين ولذلك فإن الإسلام لا بد أن يتناقض مع أي حزب لأنه أساساً ضد الحزبية. ولذلك لا بد أن يتناقض مع حزب الإخوان المسلمين لا سيما في أسلوب العمل المتبع في اغتيال الآخرين ومهادنة الأعداء والسلاطين. والتقلب حسب أهواء الحكام الذين يتبعون الهوى والذاتية في سياساتهم ورؤاهم حول القضايا القومية والإنسانية والإسلامية الحساسة.

الإسلام والحزبية ومفهوم الديمقراطية:

تدل كثير من الآيات القرآنية وبالدلالة الإلزامية على أنه يتوجب على الأمة الإسلامية القيام بتشكيل دولة في إطار القوانين الإسلامية. وأن للشعب السيادة وأنه لا يحق لأحد أن يحمل نفسه على كاهل الشعب ويفرض سيادته عليه دون رضاه ودون موافقته، والإسلام يُفهمنا أن تشكيل الدولة حق اجتماعي للأمة ولها أن تستوفي هذا الحق متى شاءت وأرادت وهذا يعني أن

الذين يتولون قيادة الأمة هم مؤتمنون. بمعنى أن الحكومة أو القيادة أمانة تعطيها الأمة وعليهم أن يحرصوا على هذه الأمانة غاية الحرص.

يقول تعالى في سورة النساء 58: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾**.

وقد فُهمت الديمقراطية في الأنظمة الحزبية التعددية في الغرب وبعض بلدان العالم الإسلامي على أنها انتخاب ممثلين عن الشعب. وهذا هو أكبر عيب في تلك الأنظمة الحزبية التعددية.

فالحاكم المنتخب أو النواب المنتخبون يكونون تابعين للناس وليس تابعين للمصالح والحقائق. وهؤلاء سيفعلون ما يرضي الناس حتى ولو كان رضاهم في مأثم أو انحراف عن الدين. وفي هذا يكون النائب ملكاً للذين انتخبوه يرضي أهواءهم مهما كانت صفاتها. ويستتبع ذلك أن النواب يبيعون ضمائرهم إرضاء للناس وإبقاء على تأييدهم وكسباً لآرائهم وأصواتهم لا سيما في المراحل التالية والدورات الانتخابية المقبلة.

ومن المعروف أن الانتخابات في أنظمة التعددية الحزبية لا تكون نزيهة في أسلوب دعايتها ولا في أسلوب تصرفاتها. فالمرشحون يقومون بالرشوة ويدفعون الأموال الطائلة لأجل

كسب أصوات الناس. ويلجأون إلى وسائل دعائية لا أخلاقية كأن يضعون الفتيات شبه العاريات على الصناديق أو توزيع بعض الأموال والمستلزمات الحياتية للناس. أو إقامة مهرجانات تتخلها حفلات الرقص النسائية القذرة.

وكثيراً ما يرشح في هذه الأنظمة أصحاب النفوذ الإقطاعي أو الرأسمالي لأصحاب الكفاءات. فكم مرشح نجح في الانتخابات ولا يعرف أن يكتب صفحة أو بضعة أسطر... فالمهم في ترشيحه أنه من عائلة مرموقة ذات إقطاع ونفوذ والمهم أن يدفع الأموال للناخبين علماً أن هذه الأموال أساساً هي من جهود هؤلاء الفقراء من العمال والفلاحين وصغار الكسبة.

إضافة لذلك فإن نجاح حزب أو نجاح حزب على حساب أعضاء حزب آخر يعني بالمحصلة حرماناً وتجاهلاً لبقية الناس الذين لا ينتمون إلى الحزب الفائز وهذا يقع في أكبر زاوية من التحريم الإسلامي الذي يرفض تماماً حرمان أي فرد في المجتمع من حق التعبير عن رأيه بحرية كاملة ومن ثم يرفض تحكم فئة على فئة أو فئة على بقية أفراد المجتمع.

إن الإسلام يرفض أسلوب الانتخابات على طريقة الغربيين ويرفض رفضاً قاطعاً هذا التمثيل الذي هو تدجيل على الشعب وقتل للديموقراطية الحقيقية، ورفضه نابع أساساً من رفض التشريع الإلهي له ولأساليبه غير الأخلاقية. فالمجتمعات الغربية التي تقوم

على هذه الأسس هي مجتمعات لا أخلاقية أو دينية. وهي لا تخضع لأي شروط أو مواصفات موضوعية ومنطقية لا في الناخب ولا في المنتخب. وفيها لا مكان إلّا لعدد الأصوات التي تُباع وتُشترى وتكتسب بالأبواق وأجهزة الأعلام وتحت تأثير الدعايات البراقة والوعود المنمقة.

إن الانتخابات في ظل الديمقراطيات الغربية ليست أكثر من لعبة سياسية يحرمها الشرع الإسلامي. وهذا الانتخاب الغربي يفتقد من أساسه لأي ضمان يحقق للشعب ما يريده من صلاح وتقدم وكرامة إنسانية وعدل وتساوٍ بين جميع الأفراد.

إن التمثيل تدجيل وأسلوب رخيص في التسلط على الشعوب (وحيث أن نظام الانتخابات للمجالس النيابية يقوم على الدعاية لكسب الأصواب إذاً فهو نظام (ديماغوجي) بمعنى الكلمة وأن الأصوات يمكن شراؤها ويمكن التلاعب بها وأن الفقراء لا يستطيعون خوض معارك الانتخابات التي ينجح فيها الأغنياء دائماً وفقط)[1].

أما في الحزب الواحد فلا مجال للحديث عن أي ديموقراطية. لأن حكم الحزب الواحد يقوم أساساً على رفض المنافسة من كافة الفئات الجماهيرية والشعبية وغالباً ما يلجأ الحزب الحاكم إلى ترشيح زعيم للبلاد من نفس إطار الحزب

---

(1) الكتاب الأخضر. الفصل الأول. حل مشكلة الديموقراطية ص 13.

الحاكم أو من دائرة الفئة الأقوى في الحزب نفسه. وطالما أنه لا منافس لهذا الزعيم فإن النتيجة بنجاحه حتمية أو حتى لا تستطيع أن نسمي العملية نجاحاً بل هو تعيين بأسلوب رخيص وغبي. (الاستفتاء تدجيل على الديموقراطية إن الذين يقولون نعم والذين يقولون لا لم يعبروا في الحقيقة عن إرادتهم بل ألجموا بحكم مفهوم الديموقراطية الحديثة ولم يُسمح لهم بالتفوه إلا بكلمة واحدة وهي إما نعم وإما لا إن ذلك أخس وأقصى نظام ديكتاتوري كبحي إن الذي يقول لا يجب أن يعبر عن سبب ذلك ولماذا لم يقل نعم والذي يقول نعم يجب أن يعلل هذه الموافقة ولماذا لم يقل لا وماذا يريد كل واحد وما سبب الموافقة أو الرفض!)[2].

ولننظر إلى واقع الاستفتاء الذي يجري في الأنظمة الحزبية الديكتاتورية الواحدة نرى أن نسبة من قالوا نعم لا تقل عن 99٪ و9٪ بالعشرة. وكأن جميع أفراد الشعب موافقون كل الموافقة على انتخاب هذا المرشح الوحيد، ويبدو أن النسبة معدّة سلفاً فإن قالت الجماهير نعم كان بها وإن لم تقل وقالت لا. فإن النسبة تبقى هي رغم أن الجماهير لا تستطيع قول لا بسبب الإرهاب الذي يمارس عليها في أي عملية انتخابية أو ما شابه ذلك. ولا شك أن الارهاب يشمل الاعتقال والسجن وأحياناً التعذيب والقتل.

---

(2) الكتاب الأخضر. الفصل الأول. حل مشكلة الديموقراطية ص 37

وكمثال على ذلك ما نراه في انتخابات الحزب الشيوعي السوفياتي والأحزاب الأخرى المشابهة في أنحاء كثيرة من العالم الثالث.

إن تعيين الحكام من قبل أكبر القوى في الحزب الحاكم يجعل الحكام متسلطين إلى ما لا نهاية على الشعب. (وحيث أن الشعوب يتحكم فيها الآن حكام فإن الصراع السياسي سيستمر وستتفجر الثورات والانتفاضات في كل مكان حيث تحاول الشعوب القضاء على حكامها. إن هذا الصراع السياسي أو المرض السياسي أو القلاقل الاجتماعية سببها المباشر وجود الحكام الذين يشكلون نقيضاً ومضاداً للشعب)[1].

إن السلطات الحزبية التي تحكم البلاد أي بلاد بلا منافس حزبي آخر تلجأ في بعض مراحل عمرها إلى أساليب انتخابية لترشيح بعض الناس لما يسمى مجلس الشعب أو مجلس الأمة. «صفة هذه المجالس لا تتعدى كونها شكلية تهتم بقضايا هامشية جداً. ويفرض الحزب رقابة عليها بحيث لا تستطيع التحرك إلا ضمن أفق الحزب الحاكم. وحتى يروّض الأعضاء فإن الدولة تمنحهم تسهيلات لا تمنحها لغيرهم فكل عضو في هذه المجالس يمتلك أكثر البيوت جودة وأفخر السيارات نوعاً وعدا ذلك فإنهم يقومون بأعمال تجارية غير قانونية في غالب الأحيان. وهذا ما تريده

(1) شروح الكتاب الأخضر، المجلد الأول ص 183.

السلطة الحزبية ذاتها. فالمرشح لهذه المجالس يمنح صلاحية للاعلان والمنافسة ويصرف الملايين من أجل حملته الانتخابية. وعندما يصل إلى هدفه فتقطع صلته بالجماهير التي فُرض عليها انتخابه. وإذا ما حدث أن قام أحد هؤلاء الأعضاء بالاجتماع على ممارسة مّا فإن مصيره سيكون السجن أو حجب الثقة عنه.

ويتميز أعضاء هذه المجالس بأن لاولادهم حقوقاً تعليمية وترفيهية لا يمتلكها غيرهم من أبناء الجماهير الواسعة. بل إن أولادهم يتجاوزون كثيراً من الأعراف والقوانين والاخلاقيات الاجتماعية المتعارف عليها. ويرتبطون غالباً بمفاهيم رأسمالية لا تخلو من التطلعات نحو السرقة والنهب واستغلال الآخرين والتدخل في شؤون سياسية ليست من اختصاصهم. ويلقون حماية من أجهزة الأمن. وبالطبع حمايتهم من فضح أساليبهم الانتهازية وغير الأخلاقية ويلقون دعماً واضحاً من آبائهم الذين لا يقلون عنهم انتهازية واستغلالية.

الإسلام والطبقية:

من المعروف أن مفهوم الطبقية وديكتاتورية الطبقة هو مفهوم غربي ماركسي. وقد تبنت الأحزاب الشيوعية العربية هذا المفهوم ظناً منها أنه رد على النظام الرأسمالي. ومن خلال التنظيرات الماركسية نجد أن مفهوم الطبقة يرتبط ارتباطاً كلياً بالحزبية الشيوعية. ويعني هذا المفهوم في مراحل حكم النظام

الشيوعي أن تتسلم السلطة الحزبية طبقة العمال وتشكل بذلك ديكتاتورية العمال أو الطبقة العاملة.

ماذا تعني الطبقة؟ وماذا يعني مفهوم ديكتاتورية الطبقة؟ من المعروف أن المجتمع أي مجتمع يتشكل من قطاعات واسعة من الجماهير. وهي تشمل العمال والفلاحين والمثقفين والاطباء وعناصر الجيش والطلبة الخ.. ورغم هذا فإن الشيوعية قالت إنه في ضوء الصراع مع الرأسمالية يجب أن يتسلم العمال السلطة. أما كيف يتسلمون السلطة وهم يشكلون قطاعاً واسعاً من الجماهير؟ فإن ذلك يتم من خلال مجالس السوفياتيات أي من خلال انتخاب مرشحين إلى اللجان المركزية بحيث يحتل هؤلاء كافة قطاعات العمال. هذا ما يمكن أن يراه الشيوعيون وهم يواجهون الرأسمالية. ولكن ما الذي يمكن أن نراه من ذلك في عالمنا العربي والإسلامي؟

لقد عانى العرب قبل الإسلام من تسلط القبلية وديكتاتورية الزعامة التقليدية وعندما جاء الإسلام ألغى كل مظاهر القبلية السياسية رغم أنها ظهرت مرة أخرى لدى الحكم العربي في زمن الأمويين والعباسيين مخالفين بذلك شريعة الإسلام بحجة أن تطوراً اجتماعياً كبيراً يحتاج إلى تغيير في طبيعة الحكم. في مفهوم الشريعة الإسلامية الصرفة لا وجود لصراع طبقي إنما الصراع يتكرس بين مفهوم الإيمان وأصحابه ومفهوم الظلم والكفر والطغيان وأصحابه.

فالطبقية تعني تماماً تسلط فئة على فئة والتحكم في حياة الآخرين وهذا شكل من أشكال القبلية التي يرفضها الإسلام.

إن وحدة الإيمان هي التي تشكل الأمة الإسلامية التي لا فضل فيها لأحد على أحد فلا طبقة خير من طبقة ولا عرق أفضل من عرق.

يقول تعالى: في سورة الحجرات الآية 10 ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾.

ويقول تعالى: في سورة الأنبياء الآية 92 ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾.

ويقول تعالى: في سورة المؤمنون الآية 52 ﴿**فإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾.

ويقول تعالى: في سورة التوبة الآية 11 ﴿**فإن تابوا وقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين**﴾.

وقال تعالى: في سورة آل عمران الآية 110 ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾.

فالإسلام يرفض قطعاً تمييز أحد عن أحد، ويرفض تسلط المسلم على المسلم أو طبقة على طبقة. إنه جاء أساساً لإلغاء الامتيازات التي تفشت في المجتمع الجاهلي فكيف يرضى أن

يكون فضل لأحد على أحد إلا بالإيمان والتقوى.

ولم يمض رسول الله ﷺ إلى جوار ربه إلا وأكد على مفهوم الأخوة الإسلامية وشدد عليه وهذا يدل على أن الرسول العظيم يدرك أن أخطر ما يفتت الأمة استعلاء أحد على آخر واستئثار فئة دون فئة وتسلط طبقة على طبقة. يقول ﷺ في حجة الوداع. أيها الناس أن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى»(1).

وقال أيضاً: (ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم)(2).

إن الإسلام لم يقتصر على اعتبار الإيمان ملاكاً للانخراط في سلك الأمة الإسلامية بل نفى كل ما سوى ذلك من العناصر التي ربما يتمسك بها الناس للتفريق بين جماعة وأخرى كاللون واللغة أو العرق أو ما شابه ذلك.

إن الطبقية التي هي شكل من أشكال الديكتاتورية القمعية تقوم أساساً على النظرية الماركسية التي تتبنى المرور بالمراحل. وهذا يعني بالنسبة لهم الوصول أخيراً إلى الشيوعية المشاعية. وقد أثبتت الأحداث أن هذا المنظور وهمي فاشل. فبعد أكثر من خمسين عاماً من الحكم الشيوعي في روسيا وشرق أوروبا تهاوت

---

(1) سيرة ابن هشام ج 4 ص 604.

(2) سيرة ابن هشام ج 4 ص 604.

هذه المقولات وانطلق الشيوعيون ليرفضوا هذا الوهم الذي سيطر عليهم زمناً طويلاً. والاتحاد السوفياتي يعيش الآن حالة إعادة النظر في جميع المقولات الشيوعية عن قصة المراحل وهو يطرح حالياً كل ما هو مناقض لنظريته. فلا عمال يحكمون ولا اقتصاد سوى اقتصاد الخط الرأسمالي البشع. والاتحاد السوفياتي الآن يصارع نفسه بنفسه حول ما يسمى (انتاج السوق) والانفتاح تماماً على كل أشكال التجارة الرأسمالية المريضة ويبدو واضحاً أن الصراع ضد الرأسمالية تحول إلى صراع بين العمال أنفسهم والحزب الشيوعي. ويبدو واضحاً للطبقة العاملة نفسها أن الحزب الشيوعي أداة حكم استغلالية وقمعية تقوم مقام القيادة الرأسمالية في العالم الغربي وأمريكا. لقد استغل الشيوعيون شعار الطبقة العاملة استغلالاً بشعاً حيث أنهم باسمها قاموا بالثورة. ولكن ثورتهم كانت لمصلحتهم وليس لمصلحة الطبقة العاملة أو غيرها من بقية أفراد الجماهير.

لقد أغفلت الأوهام الماركسية أن النظام الشيوعي كله يعيش على صراع الطبقات وليس على صراع طبقتين. فالجيش الذي يمتلك السلاح طبقة. والعمال طبقة وقيادة الحزب الشيوعي طبقة، وكل طبقة تحاول التسلّط وتثبيت سيطرتها على المجتمع وكافة الطبقات الأخرى. وهذا يقودنا إلى القول إن الحزبية والطبقية هما وجهان من وجوه الصراع على السلطة. وجهان من وجوه تدمير الأمة برمتها. والتناقض بين الحزب الحاكم والشغيلة

المحكومة ما يزال مستمراً (علاوة على أن المجتمع الماركسي توجد في داخله الطبقات رغم اعتقادهم بأنهم صفوها فقد قسموا المجتمع إلى طبقتين واحدة ثارت ضد الأخرى وحطمتها وبقيت طبقة العمال. لكن واقع المجتمع الماركسي هو أنه تكون من عدة طبقات في الداخل) (الناس ليسوا أحراراً بسبب وجود طبقات تحتكر شيئاً حيوياً في المجتمع. إن احتكار السلطة هو أخطر شيء في المجتمع وكذلك احتقار رأس المال واحتكار السلاح أيضاً)[1].

إن شعار الطبقية الذي استغلته الأحزاب الشيوعية أوقع هذه الأحزاب نفسها في محل الشك فتحت شعار وحدة الطبقة العاملة وكفاحها ضد الرأسمالية تحالفت الأحزاب العربية الشيوعية مع الحزب الشيوعي اليهودي. وتحت شعار الطبقية الشيوعية ساندت الأحزاب الشيوعية العربية النظام الشيوعي في أفغانستان ضد المجاهدين المسلمين وتحت شعار التحالفات والتوازنات الدولية تحالف الحزب الشيوعي السوفياتي مع أمريكا الرأسمالية التي كانت بالأمس العدو اللدود للشيوعية والاشتراكية على إرسال قوات صليبية إلى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج.

وهكذا يتضح أن كافة الحلول التي قدمتها النظرية الماركسية لحل مشكلة الجماهير في الفقر والمساواة قد فشلت فشلاً ذريعاً

(1) شروح الكتاب الأخضر. المجلد الأول ص 66-67.

لأنها في أساسها قامت على طرح حلول نظرية وهمية ليس لها وجود على أرض الواقع.

وإذا دققنا في شعار الطبقية الذي نادت به الشيوعية وجدنا أن الاوساط اليهودية هي أول من طرحته وأدخلته إلى حيز العقول الساذجة. وقد جاء في البروتوكول الثالث من بروتوكولات حكماء صهيون (إننا نقصد أن نظفر كما لو كنا المحررين للعمال. جئنا لنحررهم من هذا الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الاخوة والمصلحة العامة للإنسانية وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية) (إن قوتنا تبقى في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين لأننا بذلك نستبقيه عبداً لإرادتنا)[2].

هذا ما جاء في البروتوكول الثالث وقد ظهر أن تطبيق ذلك جاء من خلال الثورة الشيوعية عام 1917 تلك الثورة التي تزعمها يهود وأرادوا من وراء طرح شعاراتها إيهام العمال بأن الشيوعية جاءت لمصلحتهم. وما عليهم إلا حمايتها والدفاع عنها ولو بقوة السلاح. ولعل الصراع الدموي الذي حدث بين البلاشفة

---

(2) بروتوكولات صهيون من التنظير إلى التدمير. حسن الباش. ص 96. دار قتيبة. بيروت 1990.

والمناشفة وهما فئتان شيوعيتان اشتركتا في الثورة خير دليل على أن المقصود برفع شعار ديكتاتورية العمال هو مزيد من الصراع والدمار لأبناء الشعب الواحد والجماهير الواحدة المنتمية لأمة واحدة. لقد راح ضحية الصراع عشرات الآلاف من الناس بسبب وهمية صراع الطبقات. ودمرت البيوت والمؤسسات، كل ذلك في ظل الصراع الطبقي المزعوم وباعتبار أن الصين الشعبية تبنت النظرية الماركسية الشيوعية حسب مفهومها وواقعها فإنها غلّبت طبقة الفلاحين على كل الطبقات. لقد كانت الصين واقعة تحت سيطرة إقطاع متحالف مع الاستعمار الياباني. فوجهت كل اهتمامها نحو الصراع بين طبقة الفلاحين والملّاك الاقطاعيين. ولكنها بذلك أهملت كافة الطبقات الأخرى أو الشرائح الاجتماعية التي يقوم تكوين المجتمع عليها.

وأصابها ما أصاب الاتحاد السوفياتي من تكريس للفردية. (ماو تسي تونغ) يصبح الزعيم الذي تتنزل كلماته تنزيلاً ولكنه بعد أن يموت يصبح رمزاً سيئاً لدى الحزب الشيوعي الصيني وينقسم الحزب على نفسه ويأخذ الصراع مجراه حيث يُحطم كل ما بناه ذلك الزعيم ويحاكم مناصروه ويُطردون من الحزب ويُسجنون. وفي الأعوام الأخيرة يظهر فشل الحزب في حل المشاكل السياسية فيلجأ إلى طبقة الجيش الذي سحق المتظاهرين في شوارع المدن الصينية ولا سيما العاصمة وكان معظمهم من الطلبة الذين نادوا بالاصلاحات السياسية والاجتماعية. وقد

لوحق الآلاف منهم وحكم على بعضهم بالإعدام واتّهموا بأنهم من المنادين بالرأسمالية والخروج على خط الحزب وشيوعيته.

وهذا لا يعني أن الصراع ينتهي عند هذا الحد. فالذين قمعوا وأُعدموا ينتمون إلى شرائح اجتماعية كبيرة وهي لا يمكن أن تتخلى عن مبدأ الصراع مع الحكام الديكتاتوريين. هذا ما يدلُ أيضاً على فشل النظام الحزبي في تحقيق سعادة الجميع من أبناء الشعب وإن خبت الآن حدة الصراع بسبب القمع الحديدي وجبروت الجيش فإن ذلك لا يعني قطعاً أن الصراع انتهى بين الطبقات.

إن الصراع لا بد قائم حتى يستطيع الشعب القضاء على الحكام وتغيير بنية نظام سلطة الحزب الواحد أو الأحزاب. وهذه هي طبيعة أنظمة الحكم الحزبية السلطوية في العالم كله.

إن أنظمة حكم الحزبية مهيأة دوماً للتفجير من الداخل ولعل ما حدث في رومانيا وفي بلدان شرق أوروبا دليل آخر على ذلك. فالحزب يدّعي أن القيادة المنحرفة شوّهت الماركسية وشوهت دور العمال في تسلم السلطة فلذلك يجب أن تُقمع وهكذا فعلت رومانيا، ولكن عناصر الحزب الجديدة ظلت تمارس ما مارسه شاوشيسكو ومعاونيه بل إنها جاءت أكثر دموية وأكثر إرهاباً منه ومن نظامه. فقد أدخلت الجيش كقوة جبارة مسلحة ضد المتظاهرين وقتلت الكثيرين وشردت الآخرين

واعتقلت الآلاف من جماهير الشعب الروماني ووضعت كل ثقلها في الإمساك بقبضة من حديد ورصاص على السلطة. وعادت البلاد تعيش في أسوأ حالة اجتماعية وسياسية وأمنية. بل إن الإحباط الذي سيطر على الجماهير لم يذقه الشعب أيام الحكم السابق. وهذا بالطبع من طبيعة الأنظمة الحزبية السلطوية التي لا تدخر قوة وسلاحاً في القضاء على المعارضين لحكمها مهما كانت صنعتهم ومهما كانت مستوياتهم الاجتماعية.

البيروقراطية من مفرزات الأنظمة الحزبية المتعددة والواحدة:

عندما تطرح مسألة البيروقراطية فإن الواقع يشير ويفصح عن أسوأ نظام وظيفي إداري تفرزه طبيعة الحكم الحزبي في العالم. وفي كلا النظامين الرأسمالي والشيوعي فإن السلطات تلجأ إلى تعيين موظفين ذوي خبرات إدارية معينة ولكن هؤلاء محكومون بما تصدره لوائح السلطة فيظلون مقيدين بتلك اللوائح لا يستطيعون الخروج عليها ولو كان عن طريق الإبداع والتحسين.

وكان من طبيعة البيروقراطية في النظامين النظام الشيوعي القائم على حكم حزب واحد والنظام الرأسمالي القائم على التعددية الحزبية التنافسية أن انحطت الثقافة الصناعية والإنسانية.

فالانسياق وراء التحديث من منظور الأنظمة الحزبية عزز شأن البيروقراطية في المؤسسات المركزية الحكومية ورافق ذلك اعتقاد بأنها قوة تقدمية تفوق قيمتها الالتزامات والولاءات التقليدية.

لقد عملت البيروقراطية على عزل الإنسان وخبرته عن حقيقته الاجتماعية. وعلى خلق انفصال كبير وفجوة كبيرة بين الفعالية الذاتية التلقائية وبين احتكار السلطة المنظمة وهذا ما أدى إلى دعم النظام الحزبي القائم ودعم حياة مضطربة في أسلوبها ونمط عيشة أفرادها.

وقد تميزت الثقافة البيروقراطية للنظامين الحزبيين باعتمادها على نظام في التحكم ليس له طابع شخصي ومن خلاله يمارس مبدأ التوافقية حيث يكون التكيف مع القواعد السائدة والحاكمة له الأولوية في الرد على أي سؤال اجتماعي أو اقتصادي أو حتى سياسي.

ويصبح البشر في هذا النظام البيروقراطي عبارة عن وحدات اجتماعية تُدار من قبل السلطة بحيث تفقد أي نوع من الشخصية الإنسانية المستقلة. بل ويصبح بعض البشر عبارة عن مخلوقات يشترط بقاؤها أن تحسن فن التلاعب التجاري والعقائدي ليعمل وفق أغراض الأعمال الحديثة أو وفق أغراض سياسة الحزب الفردي أو الأحزاب الاستبدادية. وتتجلى التوافقية في البيروقراطية

في انتقائها العمال النظاميين القابلين للتجاوب مع أي وضع بحجة وجود القواعد والضوابط وترفض العمال والخبراء الذين يهتمون بالإبداع الفردي.

والنزوع نحو التوافقية لا ينشأ فقط من الطموح البيروقراطي الذي هو في أي حال نتاج التنافس السياسي الحزبي والاقتصادي. بل من التنافسية للمجتمع الذي يغرق في حمأة هذه التنافسية.

إن الإنسان في مثل نظام هكذا يصبح نتاج المؤسسة الحزبية العامة سواء أكانت هذه المؤسسة الدولة أو الحزب أو الطبقة.. ولا تستطيع البيروقراطية في هذه الحالة إشباع حاجة الإنسان أي إنسان إلى الصداقة والمعرفة والطمأنينة والعضوية الفعالة في المجتمع. ويظهر دوماً أن إضفاء صبغة المؤسسات الصناعية على القيم وإحلال مجموعة معايير محل الاستجابة الشخصية قد خلق مصدراً جديداً من الامتياز والاعتماد، حتى أن التعليم يتحول إلى سلعة. ويتضح أن أكثر الحزبية السياسية الرسمية لا تستطيع تغيير الموظفين البيروقراطيين ظناً منها أنهم وحدهم القادرون على تنشيط التقدم الصناعي. وهذا ما يؤدي بالطبع إلى ارتباط حياة الجماهير بوجود هؤلاء البيروقراطيين. وهذا بالطبع قتل واضح للثقافة الإنسانية المعاصرة في العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي وقد برهنت الثورة الشيوعية أن الأقلية البلشفية للحزب الشيوعي قد

أخفقت على نحو فريد في تعزيز التحويل الشيوعي للمجتمع وذلك بسبب الاعتماد على البيروقراطية التي ورثوها من زمن حكم القيصر وبسبب الأسلوب الاستبدادي في عملية التحويل الاجتماعي الذي لم تكن الجماهير ولا القيادة الجديدة قادرتين على التخلص منه.

إن جميع سلبيات البيروقراطية تقف في جانب وسلبية الانحطاط الأخلاقي تقف في جانب ثانٍ. فالإنسان في حالتها يصبح آلياً لا رجاء فيه ووظيفته الوحيدة أن يخدم الشبكة المنظمة التي تحيط به من أجهزة الحزب أو الدولة. فأسلوب خبرته الروتيني يعمل بقوة ضد تطور الوعي المستقل وضد تكوين الاهتمامات الأخلاقية. إنه يصبح فرداً طيّعاً معزولاً يُتلاعب به نفسياً. ولا يستطيع أن يتحدى الأخلاق البيروقراطية لأن معارضة المبادىء المعيارية هو أمر متناقض مع سلطة البيروقراطية، التي تعتبر صنماً يجب أن يسجد له. إن مفهوم البيروقراطية يجعل مهمته استبعاد كافة الأخلاق الأخرى واعتراض سبيل كل الاعتبارات الخلقية التي يحتمل أن تتضارب معها أو تهدد طريقة عملها المتواصلة.

والتأثير الخانق للثقافة البيروقراطية وأخلاقية الروح المكتبية قد أسهم بإيجاد صيغة الانفجار المرضي الذي يتصف به العصر الحديث للرأسمالية والشيوعية، فإخفاء الناس وتصفيتهم زمن

ستالين والحكم الشيوعي الدموي وعمليات القتل النازية التي بدأت مع الحرب العالمية الثانية أكبر دليل على ذلك الانفجار ضد الآلة واستعباد الإنسان.

إن تجربة الحزبية على شتى أشكالها هي تجربة تدمير البشرية والقتل الجماعي وهي دليل على حاجة الإنسان إلى حريّة حقيقية ينجو فيها من حكم البيروقراطية المستبد. إن عدوانية الإنسان البيروقراطي نفسها أصبحت نوعاً من التمرد على حكم اللوائح. ولكن الأنظمة الحزبية الشيوعية والرأسمالية التعددية قادرة بأساليبها الماكرة والقاتلة أن تدجن شعوبها. ولكن هذا التدجين لن يبقى سائداً لأن عصراً جديداً ينبثق ليدمر كل أشكال الحزبية السلطوية المدمرة. وينهي جعل الإنسان محكوماً للوائح جامدة لا تقبل التطوير.

الإسلام هو البديل الموضوعي:

من المعروف أن الإسلام يعتمد في تشريعه على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وقد فتح باب الاجتهاد للأزمنة اللاحقة لعصر النبي ﷺ وذلك ضمن مقاييس وضوابط إسلامية لا يمكن لأحد أن يتجاوزها إن كان حاكماً أو محكوماً.

وإذا خالف بعض الحكام نصوص الشرع في مسألة الحكم فإن ذلك ليس عيباً في التشريع وإنما العيب فيمن خرج عليه

(إشارة إلى عصر ما بعد النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين).

وقد قلنا في صفحات سابقة أن الانقسام الذي حدث في بعض العصور الإسلامية جرّ على الأمة ويلات كثيرة من القتل والتخريب والتحزّب الأعمى وهذا بالطبع ليس من الإسلام في شيء.

وإذا كنا نعيش اليوم عصر الصراعات العالمية وعصر صراع الأفكار فإننا أحوج ما نكون كمسلمين إلى منهج سياسي واضح يعتمد على القرآن الكريم والسنة الشريفة ويلبي حاجات العصر.

وقد أدركنا جميعاً أن الإسلام نظرية ذات أبعاد إلهية وليست وضعية وذلك مما يسهل كثيراً ويبسط الأمور ولا يعقّدها فالرجوع إلى القرآن الكريم في الأساسيات يحل جميع المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وباب الاجتهاد المفتوح ييسر عملية التحديث في تلك المجالات مع مراعاة عدم الخروج على قواعد الدين. وعندما نطرح (القرآن شريعة المجتمع) شعاراً وتطبيقاً فإننا بذلك نكون قد فهمنا أن الأفكار الوضعية لا يمكن أن تكون حلاً لمشاكلنا لأنها قابلة للخطأ والتبدل بينما عندما يكون القرآن شريعتنا فلا مجال للتأويل لا سيما فيما بينه الله في كتابه الكريم وقطع به النبي ﷺ.

فالحزبية مرفوضة في المفهوم السياسي الإسلامي لأن فيها كما

قلنا طبيعة صراعية طويلة تودي إلى تسلط فئة على فئة واضطهاد لكثير من أبناء الشعب. إن رفض الإسلام للحزبية نابع من كون القرآن والسنة يحددان علاقة المسلم بأخيه المسلم وعلاقة المسلم بالقائمين على الدولة الذين لا يستطيعون الخروج على الإجماع الإسلامي ولا الخروج أساساً على ما جاء في القرآن الكريم.

الإسلام يرفض كافة أشكال الحكم الحزبية، الحزبية الفردية والحزبية التعددية لأن في طبيعتها استبعاد لحق الجماهير في التعبير عن رأيها.. وهو يرفض استئثار زعيم واحد بالحكم يُفرض على الشعب فرضاً دون رضاه. ولعل الصيغة التي خرجت بها النظرية **الثالثة في الجماهيرية العظمى هي الصيغة المعاصرة المعتمدة كلياً على** الفهم الإسلامي للحكم وسلطة الشعب وهي التي بينت من خلال أسسها طبيعة العصر وصراعاته وما يجب على المسلمين عمله وهم يواجهون عبودية الفكر المادي الوضعي، وعبودية الإنسان للإنسان، وتسلط البشرية على أبناء جنسها.

ماذا طرحت النظرية العالمية الثالثة؟

يحدد الكتاب الأخضر مفهوم الشريعة ـ شريعة المجتمع ـ بأنها هي العرف أو الدين وأي محاولة للخروج على هذين النمطين هي محاولة باطلة وغير منطقية.

ويفهم من ذلك أن كافة ما يضعه البشر من دساتير وشرائع

هي دساتير وضعية تحكمها طبيعة الإنسان المنتمي لمجتمعه وطبيعة تفكيره، فالنظام الرأسمالي يضع شرائع رأسمالية تناسب وضعه وهو يمارس الحكم على الجماهير. فينظر إلى الأمور نظرته الاستغلالية البرجوازية التي تناسب طموحاته وطمعه المادي واستغلاله الاستعماري لبلدان العالم وشعوبه.

والنظام الشيوعي يضع شريعته حسب رؤية أشخاص يفكرون على نمط آخر مغاير فالماركسية تنسب إلى ماركس وإنجلز ولينين ومن جاء بعدهم من منظري الماركسية والواقع يقول لنا دوماً إن التطوير في الشرائع أمر وارد يومياً لأن التطوير يقع على عاتق البشر الذين يضعون أسس التشريع الوضعي ويغيرونه حسب الظروف والمستجدات.

أما عندما نقول أن شريعة المجتمع هو الدين فإنه يعني تماماً الاعتماد على دستور ليس بشرياً إنما هو دستور إلهي غير قابل للتغيير. يقول الكتاب الأخضر (إذن شريعة المجتمع ليس محل صياغة وتأليف. وتكمن كونها هي الفيصل لمعرفة الحق والباطل والخطأ والصواب وحقوق الأفراد وواجباتهم إذ الحرية مهددة ما لم يكن للمجتمع شريعة مقدسة وذات أحكام ثابتة غير قابلة للتغيير أو التبديل بواسطة أي أداة من أدوات الحكم بل أداة الحكم هي الملزمة باتباع شريعة المجتمع.

وهذا ما يعيدنا إلى صيغة الحكم في الإسلام. فالحاكم

مسؤول أمام ربه وأمام الناس وأي انحراف عن شريعة الله يعرض أداة الحكم للمحاسبة الشديدة في الإسلام لا يوجد جيش يحمي أداة الحكم إذا أخطأت ولا أجهزة أمن تبطش بالمعترضين على خطأ أداة الحكم.

إن شريعة المجتمع القرآنية هي التعبير الموضوعي المحدد عن الله وعلى ضوئه يجب أن تُحدد الطريقة التي تمارس بها أداة الحكم تسييرها لشؤون المجتمع.

لقد جاء القرآن دستوراً شاملاً موضحاً للإنسان كيف يصرف شؤونه في السياسة وفي الاجتماع والاقتصاد. لقد طالب الشرع الإسلامي بتنظيم حياة الأمة من خلال إقامة دولة تحفظ المجتمع من الفوضى والتعدي من قبل الطغاة والظالمين على الناس إن الدول العلمانية الوضعية وضعت شرائع لمجتمعاتها بعد أن تكونت تلك المجتمعات لكن الفرق كبير بينها وبين الإسلام لأن القرآن الكريم نزل على محمد ﷺ وجاء مبيناً رسالته للمسلمين. فالدستور الإلهي سبق تكوين المجتمع بل هو الذي حدد كيف يبني المسلمون المجتمع وكيف يسيّسون حياتهم وبين لهم حدود كل شيء وآفاقه فجاء بمنهج مختلف عن كل مناهج الشعوب والأمم الوضعية.

ومن خلال الاستناد إلى شريعة القرآن فإن كافة الأخطاء السياسية والاجتماعية التي تقع فيها الدساتير الوضعية لا تقع في

المجتمع الإسلامي القائم على شريعة القرآن وهذا ما يدفع المجتمع ذاته نحو التقدم المستمر والمطّرد في كافة المجالات.

ويحدد الكتاب الأخضر مسألة في غاية الأهمية حيث يطرحها بشكل سؤال مهم السؤال من يراقب المجتمع لينبه إلى الانحراف عن الشريعة إذا وقع. ديموقراطياً ليس ثمة جهة تدعي حق الرقابة النيابية عن المجتمع في ذلك، إذن المجتمع هو الرقيب على نفسه)[1].

ونفهم ذلك من خلال اعتماد المجتمع كله على شريعة الله التي وضعها دستوراً للناس وطالما المجتمع يمتلك الشريعة فإنه يستطيع أن يراقب نفسه بنفسه ويرى مدى الخروج عن الشريعة ومدى تطبيقها. ولكي يتم ذلك بشكل واقعي لا خيالي فإن الشعب نفسه يلجأ إلى المؤتمرات الشعبية الأساسية. وحكم الشعب بواسطة المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية ثم إلى مؤتمر الشعب العام (أي المؤتمر القومي)[2].

وأذا ما شعرت الجماهير أن انحرافاً مّا حصل أثناء التطبيق للحكم الديمقراطي فإنه من خلال مؤتمراته المتواصلة يقيم الخطأ والصواب ويحل الأمور بشكل إداري دون اللجوء إلى العنف. والعنف بالطبع هو وسيلة ديكتاتورية لجأت إليها الأحزاب في

(1) الكتاب الأخضر، الجزء الأول حل مشكلة الديمقراطية ص 59.
(2) الكتاب الأخضر، الجزء الأول حل مشكلة الديمقراطية ص 59.

العالمين الشيوعي والرأسمالي.

إن سلطة الشعب في المفهوم الإسلامي هي مزيج من الحاكمية الإلهية والسيادة الشعبية فهي إلهية من جهة أن التشريع لله سبحانه وأن على الأمة الإسلامية أن تراعي جميع الشرائط والضوابط الإسلامية في مجال إيجاد قيادة شعبية للأمة وأن على هذه القيادة الشعبية الالتزام بتنفيذ الشريعة الإسلامية حرفاً بحرف فلأجل هذه الجهات تعد إلهية أو قيادة قانون الله على الناس.

وهي شعبية من جهة إيجاد القيادة الشعبية التي تنفذ على مستوى حكم الشعب جميع ما تستلزمه شروط الدولة الإسلامية والحفاظ على تقدم مجتمعها وحرية أفرادها وكرامتهم وتحقيق العدالة الاجتماعية بينهم.

إن النظرية الثالثة تضع مقولة (الثروة والسلاح بيد الشعب. وقد وعت وأدركت أن ثروة البلاد من أموال وموارد وخامات يجب أن تكون بيد الشعب، ولحماية مصالح كافة أبناء الشعب يجب أن يكون السلاح بيد الشعب بيد الجماهير وليس بيد الجيش الطبقي الذي يمكن أن يكون في لحظة من اللحظات أداة قمع للجماهير.

إن الإسلام كرس الجيش لحماية دين التوحيد ورد العدوان

الذي يقع على الأمة ولم يكرسه لاضطهاد الشعب وقمع الناس. وكم ذاق المجتمع العربي قديماً وحديثاً من مرارة تكريس الجيش لإشعال الفتن والحروب الداخلية التي ترفضها الشريعة الإسلامية ويرفضها الرسول ﷺ وقوانين الله وأحكامه.

* * * *

ـ خاتمـــة ـ

لا غرابة إذا كان ماركس والماركسيون يقرون في شيوعيتهم حكم الأحزاب الشيوعية ويقهرون الشعوب بصراع دامٍ قد لا ينتهي. لا غرابة في ذلك طالما أن النظام القائم علًى الشيوعية الإلحادية هو من صنع الوضعيين اليهود.

لا غـرابة أن يلجـأ النظام الـرأسـمالي لاخـتراع تفسـير للديموقراطية ويشكل الأحزاب المتنافسة ويلغي دور الشعب من خلال تدجيله وكذبه عليـه بأن التمثيـل خير وسيلة لتحقيق الديموقراطية.

لا غرابة في ذلك أن يصدروا أفكارهم إلى العالم العربي والإسلامي تحت ذريعة الديموقراطية تارة وذريعة الصراع الطبقي تارة أخرى فهم يدركون قبل غيرهم أن الإسلام نظام إلهي يقضي على الفردية والاستئثار بالحكم والثروة والسلاح ولذلك عملوا منذ زمن بعيد على الحط من قيم الإسلام السياسية والاجتماعية والاقتصـادية. ونـادوا الناس ليقـولوا لهم إن الـدين أفيـون الشعوب.

فأي دين أرادوا؟ وهل هو سوى دينهم المادي الوضعي القائم على العدوان واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

نادوا بالحزبية لأنها خير وسيلة لتحقيق مصالحهم الذاتية الأنانية وكرسوا الصراع بين الناس ليشغلوهم عن أساسيات الحياة، دفعوا الرشاوى واستخدموا أساليب غير أخلاقية في الوصول إلى الحكم. وعندما يصلون إلى السلطة ينفضون أيديهم من كل الوعود التي وعدوها للجماهير. المهم أنهم وصلوا وإلى حملة انتخابية جديدة يهيئون الأساليب الماكرة ذاتها والطرق غير الإنسانية نفسها.

جعلوا من الإنسان آلة صماء تنفذ أوامر السلطة دون أي اعتبار لحرية الفرد وممارسته العقلية والنفسية والإنسانية.

وحين أرادوا أن يقيموا حكم الحزب الواحد ادعوا أنهم يسعون إلى سيطرة العمال على السلطة لأن العمال وحدهم القادرون على القيام بالسلطة.

صنعوا ديكتاتورية العمال على حساب كل فئات الشعب والجماهير العريضة وجرى الصراع فإذا بهم يقتتلون يحرقون ويدمرون مدّعين أن هناك انحرافاً جرى في النظرية الماركسية.

جعلوا من الجيش أداة حرق وتدمير وملاحقة لأبناء الشعب. جعلوا من الأخ يقتل أخاه في ظل شعار مزيف ينادي بحماية الاشتراكية من عسف المرتدين والخارجين عن خط الثورة

والمنحرفين عن الشيوعية.

وباسم الشيوعية وصراع الطبقات مدت أيديهم إلى الحزب الشيوعي اليهودي ليقولوا نحن وإياهم أشقّاء ومصلحتنا واحدة في محاربة الرأسمالية البرجوازية الصهيونية والبرجوازية العربية الإسلامية، وتناسوا أن الحزب الشيوعي اليهودي هو صهيوني المبدأ لا يرضى إلا بقيام كيان صهيوني يهودي على أرض الميعاد فلسطين!! تناسوا أن الشيوعية قضاء على الأخلاق وقضاء على المثل السامية. ونحن نسألهم فليجيبوا هل يوجد نظام حزبي في العالم لم يستخدم القمع والقهر في تثبيت سلطته؟ هل يوجد نظام حزبي لم يضطهد بقية أفراد الشعب غير الحزبيين.؟

فما هي الديموقراطية في رأيكم؟ بالطبع لا جواب لأن الديموقراطية زيفوها إلى حد كبير. وجعلوها مطيّة لشهواتهم وتطلعاتهم الاستعمارية المدمرة.

غير أن الجواب الشافي الذي تناساه الكثيرون يكمن في جوهر إسلامنا وقرآننا إنه حكم الشعب من خلال دستور الله وشريعة القرآن.

إنه بلا شك دستور إلهي متكامل لو تمسك به المسلمون بشكل صحيح لاستطاعوا تغيير مجرى الحياة كلها على كوكبنا الأرضي. غير أن المسلمين الذين أخذتهم الصحوة راحوا يعيدون تفكيرهم ونظرتهم إلى القرآن والحياة وأدركوا أن سعادة البشرية

تكمن في هذا القرآن وهذا الدين.

فالإسلام يساوي بين الناس جميعاً إذا كانوا يحتكمون إلى شريعة الله. فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بمقياس واحد هو مقياس التقوى والإيمان. الناس سواسية كأسنان المشط. والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. والحاكم يُقَوَّم بالسيف إذا أخطأ والذي يقوِّمه فرد عادي من أفراد الشعب، وله الحق كل الحق في أن يقوم الحاكم طالما الفيصل في ذلك كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ.

ولأن طبيعة الحياة تتغير وتتطور فإن الإسلام يصلح لكل زمان ولكل مكان ولأن وسائل النقل ووسائطها تغيرت صار من السهل على المسلمين الاتصال ببعضهم. ولذلك فإن المؤتمرات الشعبية جاءت حلاً سريعاً لكل إشكالات السلطة وأصبح العصر تماماً هو عصر سلطة الجماهير التي تستمد قوتها من قوة الشرع القرآني وتوصل صوتها إلى أي مكان. هي تراقب نفسها إذا انحرفت وتعاقب نفسها إذا أرادت العقاب. وهكذا حياة حكم الجماهير الإسلامية العريضة التي تسعى لإعمار الأرض لا تدميرها، وتسخير الطبيعة لخير الإنسان لا لدماره.

إن الإسلام يطرح نفسه اليوم كما طرح نفسه في كل زمن لحل أية معضلة إنسانية لأنه الوحيد القادر على حل كل المشاكل، ولأنه الوحيد الذي شرعه الله ولم يدخله تحريف ولا تزييف.

فليعد المسلمون إلى دستور القرآن كي تعود لهم أمجادهم الإسلامية. فليعد المسلمون إلى قرآنهم وليطبقوا شرع الله فسوف يجدون العالم كله في انتظارهم، ويجدون الشعوب في انتظار حلهم ودوائهم الإسلامي الذي يعالج كافة المشاكل الإنسانية الاجتماعية والصحية والفكرية والسياسية والاقتصادية والدينية.

يقول تعالى في سورة التوبة 61 **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾** صدق الله العظيم.

* * * * *

* *

*

الفهرس

مقدمة 7
الحزبية ظاهرة غربية وليست عربية ولا إسلامية 13
مظاهر الحزبية في صدر الإسلام 21
الموقف الإسلامي وآثار الصراع ونتائجه 32
كيف دخلت الحزبية عالمنا العربي
والإسلامي المعاصر 36
الحزبية جاءت طعناً بالشريعة الإسلامية 40
لماذا يقف الإسلام ضد الأحزاب الشيوعية 46
الإسلام وموقفه من الأحزاب الوطنية والقومية 57
الحزبية والقومية. الأفكار والمبادىء واستبعاد
المنهج الإسلامي 63
الحزبية والسلطة. الأدوات. الممارسات. الشعارات
والتطبيق 68
الشعارات القومية وفشل الأحزاب في تحقيقها 85

الإسلام والأحزاب ذات التوجه الديني 93
الإسلام والحزبية ومفهوم الديموقراطية 103
الإسلام والطبقية 109
البيروقراطية من مفرزات الأنظمة الحزبية التعددية
والديكتاتورية 118
الإسلام هو البديل الموضوعي 122
ماذا طرحت النظرية العالمية الثالثة 124
خاتمة 131
الفهرس 137